حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

العدد: ٢٧ / السنة السابعة / (نوفمبر - ديسمبر) ٢٠١١
مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين من إسطنبول

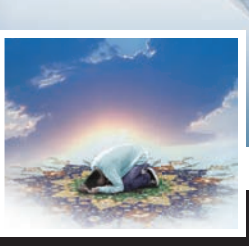
دنيا جديدة

إذا كانت دنيانا قد شاخت وهرمت،
وأضاعت الطريق، واعوجّت بها المسالك،
غير أن "دنيا جديدة"،
هي الآن تتشكل في "رحم" هذه الأمة،
وسيأتي اليوم الذي تولد فيه،
لتبهر العالم بجمالها وخيرها وعدلها.

* * *



دنيا في رحم الولادة





القرآن والإنسان

"حراء" في الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية



العدد: ٢٧
السنة السابعة
(نوفمبر – ديسمبر) ٢٠١١

الأرض وورثتها

في المقال الافتتاحي لهذا العدد يكتب الأستاذ فتح الله كولن عن أزمات العالم الإسلامي في هذه الفترة الحالكة من تاريخه، ثم يعود بعد تشخيصه لهذه الأزمات إلى وضع الحلول لخروجه منها. وهو يرى أن المسلمين مرصودون ليكونوا وارثي الأرض إذا هم انبعثوا لتجديد أنفسهم والارتقاء بأفكارهم وسلوكياتهم إلى ما يريده منهم دينهم، وأن دنياهم اليوم تتخلق في رحم الغيب وهي لابد أن تخرج إلى النور يومًا ما ولعله يكون قريبًا.

وإذا كان القرآن الكريم هو الوصّاف للأمة التي سترث الأرض، فمقال "الشاهد البوشيخي" المعنون بـ"القرآن والإنسان" يكاد يصبّ في الاتجاه نفسه. وفي العمل النهضوي المراد من المسلمين اليوم، فـ"فؤاد البنا" في مقاله الموسوم بـ"جناحا العروج إلى فردوس الإيمان" يريد للمسلم الذي يشكل اللبنة الأولى في صرح الأمة، وأن يكون طموحًا إلى العلو نحو فراديس الإيمان، وهو بالتالي يدعم الفكر الاستنهاضي الذي يدعو إليه كتّاب المجلة في هذا العدد. فهذا البناء الإيماني لابد أن يكون مرادفًا له بناء معماري يعلو بصرحه موازيًا لصرح الأمة الإيماني، وهذا ما يشير إليه "العربي بوعياد" في مقاله عن "نحو تصور إسلامي معاصر لقضايا العمران". وهذا الصرح العمراني لابد له من لمسات فنية تنبىء عن ذوق الأمة وعن جماليتها. ويأتي مقال "معصوم محمد خلف" لكي يحدثنا عن فن "الزخرفة الإسلامية بين الرمز والدلالة".

أما عن آيات الله التي ظلّت خافية عن العيون قرونًا عدة، فإن "حامد عطية محمد" يكتب عن "آيات الرحمن في تكوين لبن الأنعام" وكيفية تكونه من بين فرث ودم. والأستاذ "محمد باباعمي" يحدثنا عن "مالك بن نبي" هذا المفكر الذي له إسهامات مهمة في تاريخ الفكر الإسلامي الحديث في مقاله "مالك بن نبي، من سمات التخلف إلى بذور الحضارة". وإسطنبول هذه المدينة الساحرة كما يراها أديب فرنسي كان قد زارها وكتب عنها، يحدثنا عن ذلك "طلحة أوغرْلوإيل" في مقاله "ذكريات رحالة فرنسي عن إسطنبول العثمانية". ومقال علمي آخر لـ"أحمد عبد الحفيظ" يتحدث فيه عن الجنين في بطن أمه، وعن الإعجاز الإلهي خلال تحدث هذا الجنين إلى أمه من مكانه في رحمها.

وعن الخلّة والخليل إبراهيم عليه السلام، وعن الأبوة والنبوة وعن حادثة التضحية الكبرى يحدثنا "أديب إبراهيم الدباغ" في مقاله "الذِّبْح العظيم". وعن موضوع نفسي غاية في الأهمية يحدثنا "حسن يوسف شهاب الدين" في مقاله عن "الهم والهرم من منظور القرآن الكريم والسنة النبوية". وعن "الصيدلة الإسلامية" وعن نشوئها وتطورها في القرون الوسيطة فيحدثنا عنها "بركات محمد مراد". ونريد أن ننوه هنا في خاتمة هذا الملخص إلى أننا أغفلنا ذكر الألقاب العلمية لكتّاب المجلة اختصارًا للمكان، والله من وراء القصد.





القرآن والإنسان
جناحا العروج إلى فردوس الإيمان
آيات الرحمن في تكوين لبن الأنعام
حراء في الجزائر
وصال بعد طول انتظار

المحتويات

فتح الله كولن

دنيا في رحم الولادة

يمر العالم الإسلامي في الآونة الأخيرة بأحلك الفترات تأزمًا على مر التاريخ، من حيث الاعتقاد والأخلاق والمنهج الفكري والمعرفة والصناعة والعادات والتقاليد والأوضاع السياسية والاجتماعية.

لقد نجح المسلمون ردحًا من الزمان، في تأسيس حضارة عظمى وإدارة مُثلى تَحار دونها العقول، لمّا كانوا أكثر أهل الأديان تمسكًا بحقائق الدين، وأشدَّ أهل الأرض التزامًا بفضائل الأخلاق، وأوثقَ مجتمعات المعمورة أعرافًا وتقاليد، وأسمى أبناء المبسوطة نُظُمًا فكرية وأنماطًا معرفية، وأكثر أمم العالم قدرةً على قيادة الأرض لما يتمتعون به من أفق سياسي واسع ونظر اجتماعي عميق.. لقد أحيوا دينهم بمثالية عالية لا خلل فيها، وسموا بأخلاقهم إلى حد الكمال، وتمثلوا برؤية علمية فريدة، وتجاوزوا الزمان الذي عاشوا فيه سبّاقين له متقدمين عليه، واعتمدوا على الركائز الثلاث -الإلهام والعقل والتجربة- مستوعبين لمضامينها مستثمرين لمعانيها.. ومن ثم وُفّقوا إلى أن يوسعوا إدارتهم من جبال "بيرينيه" إلى المحيط الهندي، ومن قازان إلى الصومال، ومن بُواتييه[1] إلى سد الصين... وبينما كانت البشرية تتخبط في أحلك عصور الظلام، فقد أتاحوا للشعوب التي عاشت تحت رعايتهم وفي ظلال حمايتهم، إمكانية التنعم بحياة كريمة تضاهي تلك الأنظمة المرسومة في "المثاليات" وجعلوا الدنيا بعدًا من أبعاد الجنة.

ومن المؤلم حقًّا، أن هذا العالم لما ابتعد عن المقومات التاريخية والقيم الإسلامية التي نهضت به قرونًا طويلة، فوقع أسيرًا في أغلال الجهل والرغبات البدنية والجسمية والانحلال الأخلاقي والخرافات.. انحدر إلى مهاوي الظلام والخسران، وانساق من انهيار إلى آخر.. مُهانًا تحت الأقدام، مبعثرًا كحبات مسبحة انفرط عقدُها أو كصفحات كتاب سُلّ خيطُه.. مزلزَلاً بجدل عقيم، مقصومَ الظهر بتفرق لا حد له.. مشدوهًا متحيرًا يتغنى بأناشيد الحرية وهو يعاني من أسرٍ أودى به إلى أشد أنواع الخزي والعار.. أنانيًّا يختال بنفسه رغم أنه بلا هوية.. أعلن العصيان على الله ورسوله متذرعًا برفض الثوابت التي يحظر المساسُ بها، فوقع فريسة في مخالب ثوابت أخرى بَئس بها أيما بؤس.

بيد أن هذه الفترة العصيبة المتأخرة لم تدم أمدًا بعيدًا، رغم كثرة جهود "الأربعين حراميًّا" في الخارج، وحفنة من الأخِسّاء في الداخل. وما زال المسلمون الذين يشكلون خمس البشرية اليوم، يخوضون كفاحًا من أجل انبعاث جديد في بقاع الأرض كافة، ويناضلون للفكاك من عهد

هـذا الأسـر اللعيـن. وإن مـا لاقـوه من مصائـب واعترضهـم مـن نكبات صباح مسـاء لا سـيما في العقـود الأخيرة، قد أثمـر لديهـم طاقـة ميتافيزيقيـة دافعـة وفـرارًا إلى الله وشـحذًا لعزيمة الكفاح.

إن توافـق روح الإسـلام مـع طبـع الإنسـان، ودفعـه له نحو الرقـيّ المادي والمعنوي، وانفرادَه بمكانة لا تُدرَك في الموازنـة بيـن الدنيا والعقبـى.. هذا كله جعلَنا -حتى في أحلك المراحل ظلمة- نتنسّـم عبَقَ معاني "الحقُّ يعلو ولا يُعلَى عليـه"، ونفتـح أعيننـا ونغمضهـا علـى حقيقة ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(الأعراف:١٢٨)، ومـن ثم فإننا لم نقع في اليأس والقنوط البتـة. وأنّـى ذلك ونحن نشـاهد من الآن، تسـارعًا مطردًا في التوجـه إلى الإسـلام من غالـب فئات البشـر، ناهيك عن أن الإسلام تصدّر مكانة عالية في دائرة واسعة امتدت من أمريكا إلى آسيا، ومن الدول الإسكندنافية إلى أستراليا.

واليوم، يدخل في دين الإسلام في كل أنحاء العالم مئات الآلاف من الناس كل سنة، ويلوذون بنور القرآن مع أنهم على يقين بأن مصيرهم إلى الجوع والفقر، ولم تَحظَ الكنيسة بعُشر ما حظي به الإسلام من القبول والاستحسان، رغم كثرة الفعاليات المذهلة لمختلف المذاهب النصرانية والمنظمات التنصيرية.

إن منتهـى آمالنـا أن نعيـش في مسـتقبل قريـب جدًّا -إن لم نُخلِف عهدنا مع الله تعالى- معاني سـورة النصر بجمالها وجلالها كرة أخرى.. وأن ترفرف تحت مظلة الإسلام راياتُ الإيمـان والأمـن والأمـل، وبالتالـي الأمـان والاطمئنان مرة أخرى في شـتى بقـاع الأرض من أمريكا إلى أسـتراليا، ومن دول البلقان إلى سـد الصين، ومن أوربا إلى مجاهيل إفريقيا، وأن تتعرف البشـرية في الأرض كلها على نظام عالمي جديد يفوق الخيال، وأن ينتفع كل إنسـان من تلك النسائم الجديدة بقدر ما تتسع له قابلياته وعالمه الفكري.

ورثة الأرض

الدنيـا تـدور وتـدور.. وكلمـا دارت فإنهـا تـؤوب إلـى فلكهـا الأصلـي. فيـا تـرى، هـل ورثـة الأرض الحقيقيـون جاهزون لاسـترداد مراثهـم الذي أضاعوه وسـلبه الآخرون؟ إن الحق الموهوب -ابتداءً- شـيء، والحق الموهوب بسبب التمثل العملي شـيء آخر. فالحق إن لم يمثّل حسـب مقاييس قيمـه الذاتية، فإنه يمكـن أن يُسـلَب مـن أصحابـه في أي لحظة، ويُسـلَّم إلى قـوم آخرين يكونون أجـدر ولو نسـبيًّا بتمثيل الخيـر، وهكذا إلى أن ينشأ الممثلون الحقيقيون للحق.

إن الله ما وعد وراثة الأرض هذا ولا ذاك، بـل وعدهـا الصالحين مـن عبـاده.. الذين هـم للروح المحمديـة والأخـلاق القرآنيـة يمثلـون.. والذيـن هـم بالوفاق والاتحـاد يقومـون ويقعدون.. والذين هـم بمقتضيات عصرهم واعون.. والذين هم بالعلم والفن يتزودون.. والذين هم للموازنة بـين الدنيـا والعقبـى متقنـون.

يقـول الله تعالـى في الفرقـان البديع البيـان: ﴿وَلَقَـدْ كَتَبْنَـا فِـي الزَّبُـورِ مِـن بَعْـدِ الذِّكْـرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَـا عِبَـادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأنبياء:١٠٥)، فـلا ينبغـي لامـرئ أن يسـاوره شـك فـي أن هـذه الحقيقة التي أقسم الله تعالى عليها ستقع يومًا ما، وأن هذه الوراثة لن تقتصر على الأرض وحدهـا؛ لأن مَـن يرث الأرض ويحكمهـا، يتحكم في آفاق الفضاء والسـماء. وبعبارة أخرى فإن هذه سلطنة على الكون كله، ولما كانت هذه السلطنة عن طريـق النيابـة والخلافـة، كان لابد لها أن تتوافـق مع خصال التمثيل التـي أوجبها المالك الحقيقي للسـماوات والأرض؛ بـل يمكن القول بأن ذلك الحلم إنما يتحقق بقدر حيازة هذه الخصال ومعايشتها.

ثمـة مرحلـة في تاريخنا سـادها الضباب والدخـان، حَرَمَ المالـك الحقيقـي الإرث فيها عمن ادعـوا أنهم ورثة الأرض الحقيقيـون، لأنهم لم يبذلـوا الجهد الذي تتطلبه تلك الوراثة السماوية، ومن ثم فإن الخلاص من هذا الحرمان لا يتأتى إلا بالعودة إليه تعالى واللجوء إليه مجددًا.

إن الله مـا وعـد وراثـة الأرض هـذا ولا ذاك، بـل وعدها الصالحيـن من عباده.. الذين هم للروح المحمدية والأخلاق القرآنيـة يمثلـون.. والذيـن هـم بالوفـاق والاتحـاد يقومون ويقعـدون.. والذين هم بمقتضيات عصرهم واعون.. والذين هـم بالعلم والفـن يتزودون.. والذين هـم للموازنة بين الدنيا والعقبى متقنون.. وخلاصة القول، إن الله تعالى قد وعد تلك الوراثـة عِقبـان الروح والمعنى ممن يحلّقـون في مدار واحد مـع سـادتنا الصحابة الكـرام، نجوم سـماء النبوة.. إنها سـنة إلهية... "وشريعة فطرية" لا تتبدل ولا تتغير، ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾(فاطر:٤٣).

عوامل الوراثة

ومـن هنـا فـإن وراثـة الأرض مرهونـة أولاً بالصـلاح الذي

يتبلور في تمثل الدين على هدي الكتاب والسـنة وفي السعي لاتخاذ الإسـلام روحًا للحياة، ثم بوراثة علوم العصر وفنونه. ولا يغيبـن عن خلَدنـا البتة، أن المجتمعـات والأمم مصيرها إلـى الخـذلان غـدًا مهمـا كانت ظاهـرةً اليـوم، ما لـم تأخذ بـ"الشـريعة الفطرية" التي نشـهدها في الكون، مظهرًا لتجليات صفتـي "القدرة" و"الإرادة" ولم ترعَ مجموعة القوانين الإلهية الصادرة عن صفة "الكلام".. أو كانت عرضة لتغير داخلي في حياتها المعنوية. وكما أن التاريخ -مقبرةَ الأمم البائدة- يجهر بهـذه الحقيقـة مدوّيًا، فإن الآيـة الكريمة: ﴿ذَلِكَ بِـأَنَّ اللهَ لَمْ يَـكُ مُغَيِّـرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَـوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِـهِمْ﴾ (الأنفال:٥٣) تذكّرنا بأسـاس قويم في الظهور والانهيار، أو العز والـذل، وتشـير بوضوح إلى قصور هائل لدى المسـلمين في هذا العصر.

ويتلخص هذا القصور في المسخ الذي أصاب المسلمين فـي حياتهم الروحية والقلبية من حيـث بنيتهم الداخلية، وفي التخلف الشاسع عن العصر من حيث بنيتهم الخارجية.

وسـواء كان هـذا المسـخ والتخلـف ناجمًـا عـن الموانع الخارجيـة المتتاليـة قرنًا بعد قرن، أم كان عـن جهلنا ونقصنا وضعفنا، إلا أن الواقع يشهد بأن أمة الإسلام باتت تنزف الدم فـي الآونة الأخيرة، وأصبحت غيـر مبالية بمصادر قوتها التي نهضت بها قرونًا طويلة.. نهضت بها وجعلتها وارثة الأرض حقًّا.

أرجوكم، هل يمكن القول بأن الذين ادّعوا تمثيل الإسلام في مرحلة بائسة من حياة أمتنا كانوا أرباب حياة قلبية وروحية عميقة على مسـتوى الأوائل؟ وهل بوسـعنا أن نقول أيضًا، إن المسـلمين في تلـك المرحلة مثـل الصحابة الكـرام في عدم انشـغالهم بالحيـاة لأنفسـهم وفـي تحفزهـم من أجـل إحياء الآخريـن؟ تُـرى، كم وجهًا مشـرقًا فـي تلـك المرحلة فضّل الموت في عزة على الحياة في ذلة كما في المثل: "إما الدولةُ في الأمجاد أو الغِربانُ على الأجساد"؟ وكم روحًا نورانية لم تخضع لضغوط أعدائنا البتة واستقامت في حياتها فما حادت أبدًا عن النهج القويم؟

وإنّ التخلـف الإداري وقصـور الإدارييـن ليَكْلَـمُ الفؤادَ، خاصة في تلك المرحلة البائسـة. لاسيما أننا عجزنا عن إنقاذ أنفسـنا مـن الرزوح تحت الوصاية، بينما حـرّم القرآن الكريم علينـا الحيـاة تحت وطأتهـا. أوَننكـر أننا نتذلل علـى أعتاب الظالميـن الذيـن يسـحقوننا تحـت نِير سـيطرتهم منذ سـنين وسـنين؟ وهل بوسـعنا أن ندعي أننا استجبنا -كما يليق بورثة الأرض- لمـا أمرنا به ديننا من اسـتعداد تام وتأهب حذر في مواجهة ألد أعداء أوطاننا وتصوراتنا ورؤانا؟ واذكروا قسم الله تعالى بالخيل ووسـائل الكفـاح في القرآن الكريم، وكذا أمره سبحانه بإعداد كل أنواع الأجهزة والعتاد.

الدين والدنيا

الصحيـح هو أننـا ارتكبنا في فترة مّا خطـأ من أفدح الأخطاء التي لا تغتفر، حيث تركنا ديننا في سـبيل إعمار دنيانا، وتبنينا فكـرًا قادنـا إلى ترجيـح الدنيا على الدين. ومنـذ ذلك الحين -وما زلنا- نتخبط في شـباك "المسـتحيلات".. فأضعنا الدين وعجزنا عن إحراز الدنيا.. وبات عالمنا هذا المجيد المنكوب، يمـر بمرحلـة نزف واسـتفراغ تتمثل في رفض ميـراث مبارك يضـرب بجذوره إلى ألف عـام.. ومحاولة تدليس على الأمة باختـلاق أصل جديد له.. وتأسـيس دولة عملاقة على قاعدة هشـة ضعيفة.. وتعريـض التاريـخ والأمة والأرومـة والثقافة الموروثة إلـى الازدراء والتحقير.. والالتجاء إلى من ناصبونا العـداء ألف سـنة، إلى أفكارهم المفعمة بالشـحناء.. ثم دس أشـد الأفكار إلحادًا فـي الوطن مصحوبة بأفحـش الألفاظ.. حتـى إن الجوائـز والمكافآت كانت تنهمـر على من يزخرف هذه الأفكار شـعرًا ونثرًا.. وبات عالم المسحوقين والضعفاء والمظلوميـن هـذا، يمارَس عليه مـن أدناه إلى أقصـاه تطبيق الشيوعية في عواطفه وأفكاره وأخلاقه.

ثمـة شـرذمة مصابون بـداء الإلحـاد، عاجـزون، مرتابون حتى في أنفسهم، يتدرعون بأيديولوجيات سياسية وأشخاص وتابوهـات (ثوابـت يحظـر المسـاس بهـا) لمهاجمـة الديـن وتدنيـس المقدسـات حتـى إنـه لَتصـدر عنهـم اليـوم أقبـح الأسـاليب وأخزاهـا. وإنـي لأذكر زمانًا كان فيـه أمثال هؤلاء التعسـاء إبان رواج الشـيوعية والاشتراكية يستفرغون حقدهم وكرههـم وغيظهـم، ويناضلـون لكبـت صوت الديـن وأهله وكأنهـم فـي جهاد، معتمدين في ذلـك كله على نظم لا أصل لهـا. ورغـم أن "شـاعر الأمل" إبان كفاحنـا الوطني جعل من نشـيده الوطنـي ملحمة تروي انبعاث الأمـة من جديد، إلا أنه يعبـر عن هـذه الفترة الحالكـة التي فُرضت فيها رقابة قاسـية على الإسلام والمسلمين فقُتِلوا وأخمدت جذوتهم وأفسدت طبائعهم فيقول في أبيات مفعمة بمزيد من الأسى والانكسار:

قد انسلخ الحياء وانحسر،
فالعار ملء البوادي والقفار
كم وجهٍ قبيح لم نعرفه اختفى خلف رقيق الستار

فلا وفاء، والعهد عدم، والأمانة لفظ بلا مدلول
والكذب رائج،
والخيانة شائعة في كل مكان، والحق مجهول
العقل مرتعب جزع،
يا رب! ما أفظع هذا الانقلاب
ضاع الدين والإيمان،
فالدين خراب والإيمان تراب...[٢]

وأود أن أنوه هنا إلى أن هذه الأمة الأصيلة قد عجزت عن قمعها بالكلية شتى أنواع الضغوط القهرية الإلحادية المزاجية التي تعرضت لها طوال هذه السنوات، ولم تطفئ أبدًا شعلة أفكارها ذاتِ البُعد الأزلي والأبدي. فهذه الأفكار كانت أحيانًا جمرة تحت الرماد، وأحيانًا شرارة تشتعل نارًا بحركة طفيفة، ومصدرًا للنور كافيًا لإضاءة الدنيا أحيانًا أخرى. لكنها بقوة الجذب المركزي الناجمة عن الحيطة والحذر والتروي، اختُزلت وتقلصت بقدر ما تتسع لها نواةٌ، فاستطاعت أن تجتاز أحلك أيام الدهر لتصل إلى مرحلة تَقدِر فيها على أداء مهمتها، وهي على أهبة الاستعداد لتغمر الأرض كلها بأنوارها حينما يحين أوانها.

بيد أن ذلك منوط بأن نستخلص العبرة من سنوات البؤس الطويلة إكراما للمعاناة المؤلمة التي تجرعناها، والجهود المضنية التي بذلناها. فلنبادر مرة أخرى لكي نثبت أننا ورثة الأرض الحقيقيون بفهمنا للإسلام حقًّا، ذلك النبع الكافي لتحقيق انبعاثنا المادي وانبعاثنا الروحي.. وبانخراطنا في جموع عباد الله الصالحين.. هؤلاء الأبطال المشبوبون عاطفة، المسدَّدون فكرًا، المرهَفون حِسًّا، المستنيرون شعورًا، الأقوياء إرادة.. هؤلاء المتشبّعون بفكرة إعلاء كلمة الله المتحفزون لها دوما.. المنظِّمون لحياتهم العلمية بمنهاجية فريدة.. الموفَّقون إلى مزواجة العقل والقلب.. الأمناءُ في أعمالهم الثقاتُ في سلوكهم.. المستقرون في شخصياتهم بحيث لا يندحرون أمام نوازعهم النفسية أبدًا. فعلينا أن نواصل السير قُدُمًا في هذا الاتجاه المفقود والخط المضيَّع تحت عناية الله ورعايته. ■

(*) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو.

الهوامش:

(١) بيرينيه: سلسلة جبال بين فرنسا وإسبانيا. قازان: عاصمة جمهورية تاتارستان ذات الحكم المحلي في روسيا، والمدينة على نهر الفولغا. بواتييه: مدينة في فرنسا اشتهرت بمعركة بلاط الشهداء. (المترجم)

(٢) من ديوان "الصفحات" للشاعر محمد عاكف، وهذه ترجمة من التركية. (المترجم)



أرضنا الولود

يا أرضنا يا ولود،
يا معطاء، لا تمسكين!
كم من عجيب تمخضتِ عنه،
وكم من وليد أثار العالمين،
وقلَب الموازين...
صراخ آلامك يشقّ عنان السماء،
تتعسرين، تتألمين...
على قلوبنا نضع أيدينا صامتين،
والوليدَ العجيب منتظرين...

* * *

أ.د. الشاهد البوشيخي*



القرآن والإنسان

إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني الله به فعلِم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلتُ به" (رواه مسلم). انطلاقًا من هذا الحديث النبوي الشريف فهناك علاقة وثيقة بين القرآن والإنسان. إذن ما هو الإنسان؟ وما هو القرآن؟

طبيعة الإنسان ووظيفته

طبيعة الإنسان أنه مخلوق من طين وروح، ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(ص:٧١-٧٢). فأصل كل البشر من الطين، إلا أن الله تعالى نفخ فيه من روحه فتكوّن سيدنا آدم عليه السلام ثم تكوّن من سلالته هذا الإنسان الذي صار بتلك

النفخة خلقًا آخر كما أشارت الآية: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾(المؤمنون:١٤)، وذلك بعد مرحلة النطفة والعلقة والمضغة المخلقة وغير المخلقة، وبعد أن أُرسل إليه الملك فنفخ فيه الروح فصار خلقًا آخر مغايرًا لما كان عليه الحال قبل، مخالفًا كل المخالفة للأصل الطيني.

الإنسان إذن، ليس من طين فقط وليس من روح فقط، إنما طبيعته مزدوجة، تخلقت من انسجام هذين العنصرين وأعطت هذا الإنسان كل الخصائص التي له، وبهذه الطبيعة المزدوجة استخلفه الله في الأرض فقال جل من قائل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(البقرة:٣٠). فقبل أن يخلق آدم عليه السلام حددت الوظيفة التي له في الأرض (خليفة)، وحدد المكان الذي سيمارس فيه هذه الوظيفة (الأرض)، وكل ذلك جعلٌ من الله تعالى. ومادة "الجعل" عمومًا في القرآن الكريم تتجه إلى تنظيم الشأن العام الكوني، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾(البقرة:٢١-٢٢). هو الذي جعل إبراهيم عليه السلام إمامًا للناس، وهو الذي جعل البيت مثابة للناس، وهو الذي جعل وجعل سبحانه... ومن ذلك جعل آدم عليه السلام خليفة، وجعل ذريته من بعده تتوارث هذه الوظيفة يخلف بعضها بعضًا: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾(الأنعام:١٣٣).

فالإنسان مستخلف في الأرض، وطبيعة الخلافة تقتضي أن هناك مستخلِفًا له، وأن هناك عهدًا وميثاقًا لهذه الخلافة، وأن هناك ما تتجلى فيه هذه الخلافة، وذلك هو الشطر الثاني المحدد لطبيعة المهمة في هذه الخلافة وهي "العبادة": ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦).

كل الكائنات خُلقت لغيرها، وكلها خُلقت لهذا الإنسان؛ كثير من الأشياء خُلقت للنبات، والنبات خُلق للحيوان، والحيوان والنبات والجماد وكل ما في هذا الكون سُخر للإنسان، وهذا الإنسان إنما خُلق لله ولعبادة الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾(لقمان:٢٠)، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾(الجاثية:١٢)، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾(البقرة:٢٩). الكل في هذا الكون أُعدّ للإنسان، حتى الشمس والقمر: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾(إبراهيم:٣٣-٣٤).

إن الوحي (الهدى والعلم) الذي أوتيه محمد ﷺ إسعادًا للناس ورحمة للعالمين، مثله كمثَل الماء النازل من السماء إغاثة للناس ونشرًا للرحمة في الأرض. فكما أنه لا خصوبة في أي أرض بغير ماء، بل لا حياة، فكذلك لا هداية في أي قلب، بل لا حياة بغير قرآن.

هذا يدل على أن موقع هذا الإنسان عند الله ﷻ عظيم جدًّا في هذا الكون، وحسبنا أنه خليفة وأن وظيفته في هذه الخلافة أن يعبد الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾(الذاريات:٥٦-٥٧)؛ خلافًا لما يشتغل به بنو آدم ويهتمون، إني أريدهم لي لا لغيري، وطلبت منهم أن يعبدوني لا أن يعبدوا غيري، وسخرت لهم -تيسيرًا لذلك- غيري، وذلك الكون إنما أعدّ ليخدم هذه الأرض التي أعّدت هي نفسها لتستقبل الإنسان.

فالمركزية في هذا الكون المنظور حتى الساعة هي لـ"الأرض"، والمركزية في هذه الأرض هي لـ"الإنسان"، وهذا الإنسان ذو طبيعة خاصة وذو رسالة خاصة.

طبيعة القرآن ووظيفته

يقول الله جل وعلا: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾(الشورى:٥٢)، ويقول جل من قائل: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(المائدة:١٥-١٦).

الطبيعة الأولى للقرآن: إنه روح من أمر الله وهو نفس التعبير الذي عبر به القرآن عن الروح التي نعرفها: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(الإسراء:٨٥). وخاصية الروح أنها تمنح كل خصائص

الحياة للكيان. فهو روح حين تحل في الإنسان الفرد تمنحه الحياة بعد الموت فيصير بها خلقًا آخر، وهو روح حين تحل في جمع من الناس يصيرون جسدًا واحدًا وأمة واحدة. وما صارت هذه الأمة ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(آل عمران:١١٥) إلا بحلول روح القرآن في أفرادها جميعًا وفي كيانها العام جميعًا؛ "مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه شيء تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" (رواه البخاري). وما صنعت هذه الأمة ما صنعته في التاريخ إلا حين حلّت في أفرادها ومجموعها روح القرآن.

الطبيعة الثانية للقرآن: إنه نور ﴿جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾(الشورى:٥٢). إنه نور من نور الله و﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(النور:٣٥)، ولا نور لأحد إلا من نوره، وشأن النور أن يعطي الأمان وأن يوضح الرؤية وأن يبرز الأشياء على حقيقتها.

إن هذا القرآن نور للقلوب وللعيون وللألسنة وللجوارح، ونور للفرد وللأسرة وللأمة وللبشرية... حين يحضر تحضر كل خصائص النور ومزاياه، وحين يغيب تحضر كل مصائب الظلام وأخطاره. ولا سبيل إلى حضوره والانتفاع به إلا باتباع رضوانه: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۞ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(المائدة:١٥-١٦).

وإن وظيفة هذا القرآن -بناء على تلك الطبيعة- هي "الهداية"، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(الإسراء:٩)، ولذلك كان هذا الدعاء الوحيد الفريد الذي ندعو به الله جل وعلا في سورة الفاتحة كل يوم سبع عشرة مرة إجباريًّا، وإلا لا تصح صلاتنا: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾(الفاتحة:٦)، وهل نطلب من الله تعالى في هذا الدعاء الوحيد الفريد إلا "الهداية"؟ كل ما قبلها في الفاتحة مقدمة لها، وكل ما بعدها تفصيل لها. فأين الجواب عن هذا الطلب؟ ذلك ما نجده أول ما ندخل إلى سورة البقرة أولِ سورةٍ بعد الفاتحة التي هي بمثابة المقدمة لهذا الكتاب العظيم: ﴿ألم ۞ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾(البقرة:١-٢)، كأن الله تعالى يقول لنا: أنتم تطلبون الهداية؟ فها هو الكتاب أمامكم فيه ما تريدون، هو محض هدى على الوقف على ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾، وهو يتضمن الهدى على الوقف على ﴿لاَ رَيْبَ﴾، هو هداية لمن اتقى (أي للمتقين) ولمن اتبع رضوانه: ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾(المائدة:١٦)، أما الذي لم يتبع رضوانه فلن يهتدي: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾(النبأ:٢٦).

فالقرآن من حيث هو دلالة وإرشاد، هو هدى للناس جميعًا، ولكن لا يهتدي وينتفع به إلا المتبعون المتقون، وما من خير إلا ودلّنا عليه القرآن، وما من شر إلا ونهانا عنه. إنه محض هدى، فهل يطلب الهدى في غيره؟ كلا: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى﴾(البقرة:١٢٠) بالحصر.

والحقيقة الواضحة الصريحة هي أن هذا القرآن هو الهدى وهو الميزان لكل هدى، حتى هدى العقل الذي أودعه الله ﷻ في بني آدم حين ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾(طه:٥٠)، إذ لا يمكن الاستفادة من ذلك إلا إذا وزن بميزان القرآن الذي هو الهدى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾(الكهف:١٠٣-١٠٤).

علاقة القرآن بالإنسان

أ- علاقة الروح بالجسد (الحياة والموت): ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(الأنعام:١٢٢)؛ الإنسان بدون قرآن ميت حتى تحل فيه روح القرآن وبالقرآن يتم إحياء الإنسان. فأول علاقة بين القرآن والإنسان هي علاقة الروح بالجسد، ذلك بأن الإنسان -كما تقدم- مكون من عنصرين "طين" و"روح"، وأما العنصر الطيني مسيَّر من قبل العنصر الروحي، فهو الذي يقود الإنسان إلى الخير أو يقوده إلى الشر: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(الشمس:٧-١٠).

هذه الروح هي التي تقود الإنسان إلى المسجد أو تقوده إلى الحانة، وهذه الروح هي التي تزين له الخير أو تزين له الشر، ولكن بم تتغذى هذه الروح؟ نحن نغذي أجسامنا عادة كل يوم ثلاث مرات، ولكن نغذي العنصر الطيني فقط، أما العنصر الروحي فإنما يُغذى بغذاء من جنسه هو "الوحي"، والوحي فقط هو الذي يغذي الأرواح، وإنما يكون في الكلام ضرب من غذاء الأرواح على قدر ما فيه من روح القرآن وهدى القرآن.

ولمعرفة خطورة غيبة هذا الغذاء الروحي، يكفي أن

نظـر في تشـريع الصلاة حيـث أوجبها الله تعالـى فـي اليوم خمـس مرات وفي أوقـات معينة: ﴿إِنَّ الصَّـلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِيـنَ كِتَابـاً مَوْقُوتاً﴾(النساء:١٠٣). فالعنصـر الروحـي في الإنسـان يحتاج إلـى التـزود بالطاقـة خمس مـرات في اليـوم وبذلك الترتيب، وإلا صار مهددًا بالانطفاء والموت.

الجوع الديني في الإنسـان أكبر من الجوع الطيني بدليل هذا التشريع، وعبر الصلاة يتم التزود. فنحن نقف بين يدي المولى ﷻ لنتزود ونسـتمد من أسـمائه الحسـنى المعاني الحسنى، وإذا لم يقع اتصال لا يقع استمداد ولا إمداد.

الإنسان بدون قرآن ميت حتى تحل فيـه روح القرآن وبالقرآن يتـم إحيـاء الإنسـان. فـأول علاقـة بـين القـرآن والإنسان هـي علاقـة الـروح بالجسد، ذلـك بأن الإنسـان مكون من عنصريـن "طـين" و"روح"، وأما العنصـر الطيني مسيَّر من قبل العنصر الروحي.

وعليـه، فالضرر يلحق بالفرد حيـن لا يصلي الصلاة التي أمـر بها الله بشـروطها وحقوقها وعلى رأسـها الذكـر: ﴿وَأَقِمِ الصَّـلاةَ لِذِكْرِي﴾(طه:١٤)، ذلكـم الذكـر هـو الـذي به يحدث الاتصال، فإذا كان هناك سـهو: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾(الماعون:٤-٥)، سواء كان هذا السهو عنها جملـة أو عن بعضها فيها؛ إذ يوجد الشـبح ولا توجد الروح، وإنما روح الصلاة الذكر، فبذلك الذكر فقط يحدث الاتصال، وبالاتصال يحدث التزود بالطاقة الروحية حقًّا.

بـ- علاقة النـور بالإبصـار: ﴿قَـدْ جَاءَكُـمْ مِـنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَـابٌ مُبِيـنٌ ۞ يَهْـدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُـبُلَ السَّـلاَمِ وَيُخْرِجُهُـمْ مِنَ الظُّلُمَـاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(المائدة:١٥-١٦)؛ القرآن نور وبالنور نبصر، ولو تصورنا أنـه لـم يبـق نور، ليـس فقط نـور الكهرباء، بل لـم يبق نجوم ولا قمـر... مـا الذي يحدث نتيجة ذلك؟ يحدث التخبط التام والهلـع ويصطدم هذا بهذا ويدفع هذا ذاك ولن يهتدي الناس إلى سبيل.

فبالنور إذن تتم الرؤية الواضحة، وحاجة الإنسان إلى هذه الرؤيـة كحاجته إلى الهواء والماء، لأنـه جاء من غيب ويتجه إلى غيب ولا يدري الآن شـيئًا مـن الغيب: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾(لقمان:٣٤). علاقتنا بالدقائـق القادمة لا نعرف عنها شـيئًا، نتواجه في كل لحظـة مع الغيب... فكيف إذن نتصرف في هذا الواقع بأمان؟ الله ﷻ أرشـدنا بهـذا النـور إلى تصرف يكفـل لنـا أن نُحفَـظ ونحـن نختـرق الغيـب: "احفـظ الله يحفظـك، احفـظ الله تجـده تجاهـك" (رواه الترمـذي)، ذلك بـأن الغيب -وإن كان مسـتورًا عنا- هو معلـوم لله ﷻ، فـإذا تصرفنا كما أمر الله تعالـى في كتابه وسـنة رسـوله، حُفظنا بأمر الله من أمر الله.

أجـل، إنه النـور الربّانـي، إذا صرنا نحن بني البشـر وفق هـداه ربحنا دنيانا وأخرانا وإلا خسرناهما معًا: ﴿وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الإِنْسَـانَ لَفِـي خُسْـرٍ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَـاتِ وَتَوَاصَـوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾(العصر:١-٣).

جـ- علاقة الماء بالأرض (الخصوبة والجدب): وأحسـن بيـان لهـذه العلاقـة، بيـان رسـول الله ﷺ فـي حديـث الهدى المشـهور: "إن مثل مـا بعثني الله به من الهـدى والعلم كمثل غيـث أصـاب أرضًـا، فكانت منهـا طائفـة طيبة قبلـت الماء فأنبتـت الـكلأ والعشـب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشـربوا منها وسقوا ورعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني الله به فعلِم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسـلتُ به" (رواه مسـلم)، هذا الحديث يوضح بجلاء وجهًا من وجوه العلاقة بين القرآن والإنسـان. إذا كانت العلاقة الأولى تقـوم بوظيفة الإحياء، والعلاقة الثانيـة تقوم بوظيفة الإبصار، فإن هذه العلاقة تقوم بوظيفة التخصيب إذ بها يُحدِث الإنسان فعله الحضاري النافع.

ذلـك بأن الوحي (الهـدى والعلم) الـذي أوتيه محمد ﷺ إسـعادًا للناس ورحمة للعالمين، مثَلـه كمثَل الماء النازل من السماء إغاثة للناس ونشرًا للرحمة في الأرض.

فكمـا أنـه لا خصوبة في أي أرض بغيـر ماء، بل لا حياة: ﴿وَجَعَلْنَـا مِـنَ الْمَـاءِ كُلَّ شَـيْءٍ حَيٍّ﴾(الأنبياء:٣٠)، فكذلك لا هدايـة فـي أي قلب، بل لا حيـاة بغير قرآن: ﴿قُلْ هُـوَ لِلَّذِينَ آمَنُـوا هُـدًى وَشِـفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُـونَ فِي آذَانِهِـمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾(فصلت:٤٤).

القرآن غيث ورحمة

والناس في استقبال هذه الرحمة وهذا الغيث طوائف ثلاثة:

• طائفة طيبة قبلت الماء، أي سمحت له بأن ينفذ إلى أعماقها ليحدث الأثر المطلوب كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾(الحج:٥). هي طائفة استقبلت هدى الله ووعته وعملت به، ثم أرسلته وبلغته وعلّمته فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها خير كثير للبلاد والعباد، فهي أفضل الطوائف.

• طائفة أجادب صُلبة لا ينفذ إلى باطنها الماء، فما قبلت الماء لكن أمسكته، فاستفاد الناس من مائها وإن لم تستفد هي منه، فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وهذا النوع من الحاملين للعلم وإن كان غير منتفع فهو نافع.

• طائفة قيعان سَبخة ملساء لا يستقر فيها الماء، إذا نزل عليها الماء لا تمسكه كالطائفة الثانية، بَلَهَ أن تنبت كالطائفة الأولى، فهي لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، وهذه لا تنفع ولا تنتفع، فهي أسوأ الطوائف.

ما السر في أحوال هذه الأنواع الثلاثة الصالحة والطالحة؟ إنه الفقه في دين الله تعالى أو عدمه. قال ﷺ: "من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين" (متفق عليه)، وقال أيضًا: "الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا" (رواه البخاري). الفقيه في الدين منتفع نافع، والفقيه في الدين عالم عامل معلّم للناس الخير، إذ الرسالة مستمرة والأمة شاهدة على الناس. ولابد لمن تعلّم أن يعلّم لتتواصل الأمانة وتتواصل الشهادة حتى قيام الساعة، فذلك مثل من فقه في دين الله فعلم وعلّم، أما من لم يقبل هدى الله، فمن أين له فقه الدين حتى ينتظر منه الخير الكثير أو القليل؟!

وعليه، فإن المخصِّب لهذا المعدن البشري ولهذا الصلصال، إنما هو هذا القرآن، هو الذي يخصّبه فيحدث الفعل الحضاري الصالح من جنس ما أحدثه الرسول والصحابة من بعده، وأحدثه الجيل الراشد الذي حمل النور في الكرة الأرضية شرقًا وغربًا شمالاً وجنوبًا في ظرف قياسي لم تعرفه أمة من الأمم قط.

مؤسسات التعليم الثلاث

وأخيرًا ما الذي يجب على هذه الأمة الآن لكي تتوب من هجر القرآن؟ إنها تحتاج إلى توبة نصوح ولا سيما في حقل التعليم، ذلك بأن التعليم هو الذي يُنزل الغيث أو يُنزل القحط ويسجله في قلوب الأطفال وقلوب الشباب. وقبل التعليم توجد الأسرة، ومع التعليم يوجد الإعلام. فالمعلمون الكبار للخير أو للشر مؤسسات ثلاث:

١- مؤسسة الأسرة: لقول الرسول ﷺ: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" (رواه البخاري)، والفطرة هي "الإسلام" لقول الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾(الروم:٣٠).

لماذا الأبوان؟ لأن الاحتكاك الأول يكون بهما، فإذا قام الأبوان بوظيفتهما في غرس روح ونور القرآن، فإن شوطًا كبيرًا سيقطع في اتجاه إعادة الأمة إلى الرشد والعطاء الحضاري.

٢- مؤسسة التعليم: لأن التعليم يتلقى الطفل في سن مبكرة، ويحدث التأثير فيه بطرق متعددة، بطريق القدوة الذي هو الأستاذ أو الأستاذة، وبطريق الوسائل والوسائط السمعية والبصرية، وبطرائق المعلومات التي يقدمها له... كل ذلك يدفع في اتجاه واحد هو جعل هذا المتعلم قد خزن فيه وأعدّ لما ينفع الناس ويمكث في الأرض، أو خزن فيه وأعدّ لما يضر الناس ويفسد الأرض. وهذه حقيقة تثير تساؤلاً ضخمًا عن رسالة التعليم ووظيفة التعليم في الأمة اليوم. ما هي تلك الرسالة؟ ما نوعية الخريج الذي ينبغي أن يصنعه التعليم في الأمة اليوم؟ لابد أن نتساءل عن هذه النقطة وأن نتعاون على جعل التعليم مؤسسة لتربية وتكوين الخريج الذي أصله ثابت ورأسه في السماء يؤتي أكله كل حين بإذن ربه.

٣- مؤسسة الإعلام: الإعلام اليوم أصبحت له وسائل لا تستأذن أحدًا ولا تقبل محاصرة أو تحديدًا، أصبحت تدخل إلى عمق البيت وتدخل إلى عمق المدرسة. ما الرسالة الحقيقية لهذا الإعلام؟ إن رسالته أن يعلّم الناس الخير، إن رسالته أن يعلّم ما ينفع الناس ويمكث في الأرض، إن رسالته التمكين لروح القرآن ونور القرآن وهدى القرآن لإنقاذ هذا الإنسان. ■

(*) الأمين العام لمؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع) / المغرب.

د. فؤاد البنا*



جناحا العروج إلى فردوس الإيمان

االإسلام دين عظيم يرتقي بالإنسان إلى أعلى درجات الإيمان حيث الإحسان، ولا فرق في ذلك بين العبادات اللازمة (حقوق الله) والعبادات المتعدية (حقوق الإنسان). فإن الإيمان يزيد وفقًا لزيادة المدخلات في هاتين الدائرتين، سواء في جهة الزيادة الكمية أو الزيادة الكيفية، عروجًا نحو "الإحسان" في المعاش والفردوس في المعاد.

ومن المعلوم بالضرورة، أن الإيمان يزيد وينقص لتصريح القرآن بذلك: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾(محمد:١٧).

فكيف يعرج الإنسان في سماوات الإيمان وكيف يصل إلى فردوسه؟ لقد منح الله ﷻ عبده جناحين بهما يستطيع العروج إلى الذرى الملائكية وهما: جناح الزيادة الأفقية (الكمية) وجناح الزيادة الرأسية (النوعية)، وحول هذين الأمرين ستدندن هذه الحروف وتتمحور هذه المقالة.

الإسراء في أرض الشُّعب الإيمانية

المؤمن الحق هو الذي يدخل إلى الإيمان من أبوابه المتفرقة، الإيمان الذي ينتظم شِعاب الحياة عبر شُعبه التي قال عنها المصطفى ﷺ في الحديث المتفق عليه: "الإيمان بضع وستون -أو وسبعون- شعبة أعلاها: قول لا إله

إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان".

والناظر في نصوص هذا الدين ومقاصده، يجد أن كل ما يتحقق للناس مصلحة في معاشهم أو معادهم، جعله الإسلام شعبة من شُعب الإيمان به "فريضة واجبة"، وكل ما يؤدي إلى مفسدة في المعاش أو المعاد، جعله كبيرة من الكبائر يحرم الاقتراب منها، وهي تنتظم كل أبعاد الشخصية البشرية ومجالات الحياة الإنسانية، بحيث يصبح الكون كله محرابًا لعبادة المؤمن في مشاعره وشرائعه، في أقواله وأفعاله، في حركاته وسكناته: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الأنعام:١٦٢).

إن أبواب الجنة ثمانية، وكل باب منها عنوان لبضع من الشُّعب المتقاربة والمتشابهة، لكنها بأجمعها تمثل الطريق لعمارة الحياة في الدارين، لأن عمارة الدنيا -لا عبادتها- هي الطريق لعمارة الآخرة، والوصول إلى فردوس الجنة ليس له إلا طريق واحد وهو الوصول إلى فردوس الإيمان. والإيمان الكامل هو الذي يصنع فردوس الدنيا عبر الترقي في معارج عمارة الحياة وخدمة حقوق الإنسان.

الإيمان الذي يدمج بين خلافة الله في الأرض وعمارتها جاعلاً منها مضمونًا للعبادة الشاملة، غير مفرق بين عبادة الله في "محراب الصلاة" وعبادته في "محراب الحياة". ومن هنا طالبنا الله تعالى بالدخول إلى الإيمان من كل الأبواب المنضوية تحت دائرة "الاستطاعة" فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾(البقرة:٢٠٨)، وخطوات الشيطان سِلمٌ موصلٌ إلى الكبائر وهي عكس شُعب الإيمان.

وفي سبيل الدفع بالمؤمن إلى التغلغل في شعاب الحياة من خلال الانضباط بمقاصد شُعب الإيمان، فإن الله لا يذكر التفاصيل وإنما يركز على العناوين التي تدخل تحت كل منها الكثير من الشُّعب، مثل مصطلح "الخير" ومصطلح "الصالحات" كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾(البقرة:٢١٥)، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾(الزلزلة:٧)، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾(الجاثية:١٥).

إن عمارة الدنيا -لا عبادتها- هي الطريق لعمارة الآخرة، والوصول إلى فردوس الجنة ليس له إلا طريق واحد وهو الوصول إلى فردوس الإيمان. والإيمان الكامل هو الذي يصنع فردوس الدنيا عبر الترقي في معارج عمارة الحياة وخدمة حقوق الإنسان.

ولما كانت إحدى وظائف السنة النبوية تنزيل وتجسيد كليات القرآن وعمومياته، فقد أشارت السنة النبوية إلى الكثير من طرق الخير التي خرجت اليوم من دائرة الإيمان في وعي وسلوكيات كثير من المسلمين، مما أوصلنا إلى هذه الحالة من الغثائية ووهن الفاعلية.

وعلى سبيل المثال، قال رسول الله ﷺ: "كل معروف صدقة" (رواه البخاري)، وقال: "أربعون خصلة أعلاها منيحة العنز، ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها وتصديق موعودها إلا أدخله الله بها الجنة" (رواه البخاري)، و"المنيحة" هي "المنحة"؛ أي أن يعطي المرء غيره عنزة يشرب لبنها ويردها إليه، وهذا دفع نبوي عظيم للاعتناء برعاية حقوق الناس وخدمتهم، والاهتمام بكل ما يجلب لهم المنافع ويدفع عنهم المضار، وهو ما غفل عنه المسلمون المتأخرون وما بدأت تؤسس له تيارات التجديد والإصلاح في العالم الإسلامي، وتدعو له وتعمل من أجله، وعلى رأسها تيار الخدمة في تركيا الذي أسسه المفكر الداعية الأستاذ "فتح الله كُولَن".

ولا يستثني الإسلام في هذا الطريق شيئًا ولا يستصغر أمرًا، فقد جعل النبي ﷺ إتيان المرء شهوته الجنسية بالطرق المشروعة، من شعب الإيمان التي يستحق مقابلها الأجر: "وفي بُضع أحدكم صدقة" (رواه مسلم).

وفي ذات السياق ذكر الرسول ﷺ أصنافًا كثيرة من الأعمال والخدمات الداخلة تحت مسمى "الإيمان" مثل: إماطة الأذى عن الطريق، إزالة النخاعة من المسجد، الصدقة، الذكر، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إعانة الصانع، الصناعة للأخرق والعاجز، الابتسامة، الإصلاح بين المتخاصمين، إعانة الرجل على دابته أو مساعدته في حمل متاعه، الكلمة الطيبة، رفع الأحجار والأشواك والعظام عن طريق الناس، المعونة، الهدية، الرحمة بالحيوان؛ حتى أن رجلاً دخل الجنة

لأنه سقى كلبًا شربة ماء، ودخلت امرأة النار لأنها حبست هرة عن طعامها كما ورد في الأحاديث الصحيحة.

ولما كانت أعظم العبادات المتعدية هي التي تستغرق أكثر ساعات اليوم، وهي المرتبطة بالتخصص الحياتي والمهنة اليومية التي يقوم بها المؤمن، فقد حث الإسلام على احترام التخصصات، جاعلاً إياها من أبواب الخير التي ينبغي التسابق على ولوجها وتجويدها وصولاً إلى الإحسان الذي يستحق به المؤمن الفردوسَ في الجنة، لأن الإحسان في عمارة الحياة هو الذي يصنع فردوس المؤمن في الدنيا.

وفي هذا السبيل وردت آيات كثيرة من مثل قوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾(البقرة:١٤٧)، ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾(الإسراء:٨٤)، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾(الأحقاف:١٩).

ويبدو لي أن صدِّيق هذه الأمة الأكبر -وهو الخليفة أبو بكر ﷺ- تبوأ بين البشر المركز الأول بعد الأنبياء، لأنه أكثر الصحابة الكرام ولوجًا إلى الإيمان من سائر الشُّعب والفرائض. فقد ورد في الصحاح بأن الرسول ﷺ سأل أصحابه يومًا: "من عاد منكم اليوم مريضًا؟" فقام بعضهم وقال: أنا، وسألهم عن تشييع الجنازة وعن التصدق، وفي كل الأمور كان يرفع نزر يسير منهم، لكن القاسم المشترك بين كل هؤلاء والجامع لكل هذه الأعمال كان أبو بكر الصديق، ولذلك استحق جائزة أن يبشره الرسول ﷺ بالجنة، وبأنه ممن سيدخلون من أي أبواب الجنة الثمانية، لأنها مفتوحة لهم كما فتحوا أبواب الإيمان جميعًا، فإن الجزاء من جنس العمل.

وهكذا، فإن الدخول إلى الإيمان من كل أبوابه البالغة نحو سبعين بابًا، كفيل بإقامة جنة وارفة الظلال في الدنيا وهي الطريق إلى فردوس الآخرة، لكن ذلك رهين بالإيمان الكيفي وهو الجناح الآخر للطيران نحو فردوس الإيمان.

المعراج إلى سماوات المضاعفة

الدخول إلى الإيمان من أوسع الشعب الإيمانية، ليس الطريق الوحيد إلى الاستزادة من الإيمان وصولاً إلى ذراه، فهناك طريق آخر يمثل الجناح المكمل للجناح الأول، هذا الطريق يعمد إلى ثلاث وسائل تضاعف الأعمال بشكل كبير ولو كانت قليلة أو صغيرة، وكل وسيلة يمكن اعتبارها سماء كاملة في طريق العروج إلى فردوس الإيمان وهي: سماء العلم، سماء الإخلاص، سماء المواسم التي تتضاعف فيها الأجور.

١- رافعة العلم: الإنسان بأصله الطيني مشدود إلى الأرض، وجاذبية الطبائع الفجورية فيه تمنعه من السمو والسموق نحو العلياء، لكن الله هدى هذا الإنسان إلى الوسائل المخففة لجاذبية الأرض، والرافعة للإنسان إلى سماوات المجد، ولا شك أن العلم أولها، ولهذا كان المبتدأ في أول أمر ورد في أول آية من أول سورة في القرآن الكريم: ﴿اقْرَأْ﴾(علق:١).

وقد نوه القرآن بالعلم في مئات المواضع بأساليب كثيرة وفي مناسبات شتى، لكننا هنا نكتفي بذكر ثلاث آيات تؤكد تفوق عبادة العالم على غيره ولو كانت العبادتان متساويتين في الحجم والشكل والجهد، بمعنى أن العمل الذي يعمله العالم تتضاعف أجوره بصورة كبيرة جدًّا، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(الزمر:٩)، وقال: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾(المجادلة:١١)، وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(فاطر:٢٨). وفي الحديث الذي رواه الترمذي قال رسول الله ﷺ: "فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم".

وهنا نتساءل: لماذا كل هذه المكانة الرفيعة للعلماء؟ ولماذا أعمالهم تتضاعف؟ ولماذا علمهم يزرع فيهم كل هذه الخشية من الله حتى كاد النص القرآني أن يحصر الخشية فيهم ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

العلم أيكة مباركة تُورق أحسن الأخلاق، وتفوح بأزكى الطبائع، وتثمر أرقى المعاملات، براعمها تتدلى من خشية الله، وظلالها تتنزل رحمة بالإنسان ورفقًا بالحيوان.

إن ثمرات العلم ومواريثه لا تعد ولا تحد، فهي خالصة المنافع، عابرة المجالات... فإن العلم يورث حزمًا وعزمًا، ويدفع نحو أخذ العدة وعلو الهمة، إنه يزرع التقوى، ويبني محراب الإنابة، ويفتح عيون التيقظ، ويوقد مشاعل الشعور بالمسؤولية، ويطفئ فتن السلبية وجذوة التحاسد، ويثير حساسية الاتقاء للشبهات والتورع عن المتشابهات، ويمزق حُجب العقل وأغلال التقليد، ويصحح القصد، ويُكسب صاحبه حدة البصر وصفاء البصيرة، ويُغزِّر عرق الكفاح ودموع التوبة ودماء الشهادة.

العلم يورِّث تقدير العواقب ومعرفة المآلات، إذ يضيء

للمرء دربه فيعرف أين يضع قدمه. ولهذا فإن العالم يدري متى يكر ومتى يفر، أين يُقْدم وأين يُحجم، حيث يمتلك بوصلة تهديه إلى كل خير وتحذره من كل شر، وهو لا يعدل بالسلامة شيئًا، ولهذا فإنه يقدم درء المفاسد على جلب المصالح، ويدرأ المفسدة الكبرى بارتكاب مفسدة أصغر، ويُفوِّت مصلحة صغرى من أجل تحقيق مصلحة أكبر.

العلم سفينة الإبحار الحصينة في لُجج الحياة حيث عواصف الأهواء الطاغية وأعاصير الغرائز الجامحة. هذه السفينة تقيه أيضًا من مزالق السقوط في

الإيمان الذي يدمج بين خلافة الله في الأرض وعمارتها جاعلاً منها مضمونًا للعبادة الشاملة، غير مفرق بين عبادة الله في "محراب الصلاة" وعبادته في "محراب الحياة". ومن هنا طالبنا الله تعالى بالدخول إلى الإيمان من كل الأبواب المنضوية تحت دائرة "الاستطاعة".

بين التجديد والتبديد، بين الحقائق الأمرية (الشرعية) والحقائق الخَلْقية (الكونية)، بين الكرامات الربانية والأحوال الشيطانية، وهو سد منيع ضد تلبيس أبالسة الجن وتدليس شياطين الإنس وحصن حصين من مصائدهما.

العلم يبيّن الحدود الفاصلة بين العقل والنقل، ويمنع التعلل بالأقدار، ويدفع نحو مدافعة الأقدار بالأقدار، صانعًا الشعرة الفارقة بين التوكل والتواكل، حيث يعظم المسبب ولا يحطم الأسباب.

صفوة القول، فإن العلم يهيئ صاحبه للانكسار أمام رب السماوات،

حفر الضعف البشري. فإنه -أي العلم- يصنع للفرد المرآة التي يرى بها جهله، والدواء الذي يقيه من التضخم وتورم الذات ليظل صغيرًا متواضعًا فيُكْبِره الناس ويَعظُم عند الله.

إنه زاد الحياء وإكسير الحياة، وهو حصن من الكِبْر وترياق الخلاص من العبودية لغير الله، وهو الآلة التي تُري صاحبها الأشياء كما هي دون تصغير أو تكبير ومن غير تهويل أو تهوين، ولا شك أن ذلك كله يؤدي إلى سداد الرؤية ورشد الفكرة، وصواب الموقف والقرار، ومن هناك تتبارك العبادات المبنية على علم.

العلم طوق النجاة من رياح التنطع وأعاصير التفريط، وهو حبل الحؤول دون السقوط في مهاوي البطالة وأخاديد العطالة، وهو جسر العبور إلى شاطئ الوسطية وبر الاعتدال دون جنوح نحو مناكب "الجحود" أو تحطم على صخرات "الجمود".

إنه يمنح حامله كمال العقل، لأنه يَعْقِل أهواء الذات وغرائز النفس الأمارة بالسوء، ويلفت أنظاره إلى العداوة المتخفية تحت إهاب النفس الأمارة بالسوء، ويساعده على ترويض هذه النفس الجموح حتى يصل إلى التلذذ بقهر هواه ويتذوق لذة الطاعة وحلاوة الإيمان.

العلم جهاز دقيق يمكِّن حامله من التفريق بين الآمال المشروعة والأمنيات الممنوعة، بين البدعة المرفوضة والإبداع المفروض، بين التعدد المشروع والتفرق المذموم،

والشموخ أمام التحديات، إنه يهديه إلى "البر" ويُسلمه إلى "التقوى" حتى لا يراه الله حيث نهاه، ولا يفقده حيث أمره، فكيف لا ينسأ الله أجله ويضاعف عمله.

٢- بركة الإخلاص: والإخلاص وسيلة أخرى لزيادة مدخلات الإيمان، لأنه يُكَثِّر القليل ويعظم الحقير ويكبر الصغير، فبه تتضاعف الأجور وتتضخم الأرصدة وتتبارك الأعمال.

بالإخلاص يَجْمُلُ القوام الداخلي للإنسان، وينعكس الجمال على مظهره الخارجي فيزينه ولو كان أفقر الناس في الوسامة والجمال، ويلقي حبه في قلوب الخلق، ويضع له القبول في الأرض فيحبه الناس ويحبهم، وتتنور الأفئدة فتتقوى الدوافع ويصفو الإرسال، عندها ترتفع الأعمال وتتبارك، ويلتفت الله إلى أصحاب القلوب الناصعة، وما نظر الله إلى شيء إلا قبله وباركه.

ولعظمة الإخلاص في تعظيم الأعمال، أوصى رسول الله ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه -وكان شديد الحب له- فقال له: "أخلص دينك يكفك العمل القليل" (رواه الحاكم). وبدون الإخلاص يقل الكثير وتتحول جبال الأعمال إلى سراب أو هباء منثور في أودية لا قعر لها ولا قيعان.

ورد في الحديث الذي رواه الإمام مسلم قوله ﷺ: "لقد رأيتُ رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين"، وما أظن هذا الأجر العظيم إلا بسبب

قوة الإخلاص في قلب ذلك الرجل، فبهذا الإخلاص الشديد أسكن الله وحده في قلبه فأسكنه الله في جنته.

وروى البخاري عن أنس ﷺ قال: رجعنا من غزوة تبوك مع النبي ﷺ فقال: "إن أقوامًا خلفنا بالمدينة ما سلكنا شِعبًا ولا واديًا إلا وهم معنا، حبسهم العذر"، وفي رواية للإمام مسلم: "إلا شركوكم في الأجر". إن النية لا تبارك العمل فحسب، بل توجده ولو كان عدمًا.

وهكذا، فإن الإخلاص يُراكم الحسنات ويضاعف الأجور على أعمال بسيطة، حتى إن سلعة الله الغالية –وهي الجنة– يمكن أن يعطيها الله مقابل أمر بسيط؛ كإزالة شجرة من طريق الناس –كما أسلفنا– أو سقاية كلب شربة ماء كما جاء في الحديث الصحيح أو مداينة الناس وإمهالهم كما جاء في حديث آخر.

٣– استثمار مواسم البركة المضاعفة: وهناك وسيلة ثالثة تضاعف الأعمال اليسيرة وتُراكم الأجور وهي استثمار مواسم البركة، حيث الجوائز فيها عظيمة مضاعفة، وهذه الوسيلة ثمرة للعلم والإخلاص وخاصة العلم.

لقد وضح الله ﷻ الغاية من خلق الإنسان بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦)، وهي العبادة الشاملة في محراب الوجود والمتوزعة بين ساعات اليوم والليل، والتي يتقلب الإنسان فيها بين العلم والعمل، الفكر والفعل، الأكل والصيام، النوم والقيام، الهزل والجد، الذكر والصمت، القيام والقعود، الاختلاط والعزلة... بحيث يلتزم منهج الوسطية والتوازن والاعتدال ويراعي المقادير ويعطي لكل عبادة زمانها ومكانها المناسبين. ففي إطار ساعات اليوم الواحد، لا أفضل بعد الفجر من قراءة القرآن مع أن القراءة مأجورة في كل وقت، ولا أفضل بعد ذلك من عبادة العمل حتى الظهر، ولا أفضل بعد الظهر من عبادة القيلولة، ولا أفضل من الصلاة في أوقاتها وأداء الواجبات المرتبطة بالخلق وقت الحاجة إليها، ولا أفضل من النوم في النصف الأول من الليل وهذا ثابت علميًّا. فقد ذهبت أبحاث علمية إلى أن الراحة التي يكتسبها الجسم من نوم ساعة واحدة في هذا الوقت، تعدل ساعتين في النصف الثاني من الليل أو ثلاث ساعات في النهار. وسنضرب مثلاً لهذه المواسم في العبادات اللازمة، أي الشعائر التعبدية القائمة بين الفرد وربه، سواء ما ارتبط منها بالزمان أو المكان.

ففي إطار الزمان، فإن كل الساعات تصلح لحصد الأجور في الصلاة والصوم مثلاً مع وجود استثناءات، لكن الفروق في الأجور كبيرة جدًّا، فأفضل ساعات الصلاة في اليوم والليل بعد المكتوبة هي الثلث الأخير من الليل، وأفضل أيام الأسبوع هو يوم "الجمعة"، وأفضل أيام الشهر ١٢، ١٣، ١٤ من كل شهر، وأفضل أشهر العام هو شهر "رمضان"؛ ففيه من الأجور ما ليس في غيره، وفيه ليلة تعدل أجورها أجر بضع وثمانين عامًا.

وفي إطار الأماكن فإن أفضلها المساجد وأسوأها الأسواق، وعلى مستوى المدن والمساجد، فإن أفضلها مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف. فالصلاة في الحرم المكي تعدل مائة ألف صلاة في سائر المساجد، والصلاة في الحرم النبوي تعدل ألف صلاة، وفي الحرم القدسي (الأقصى) تعدل خمسمائة صلاة.

وهناك أدعية يؤجر عليها الإنسان في أوقاتها المشروعة ما لا يؤجر في غيرها؛ كأدعية الصباح والمساء، وأدعية الأكل والشرب واللبس والركوب ودخول الحمام وقضاء الحاجة ورؤية الهلال ورؤية صورة الذات في المرآة وغيرها.

وهناك صلوات مناسباتية لا يمكن أن يحصل المرء على أجورها ما لم تكن في أوقاتها ومناسباتها المشروعة؛ كصلاتي الكسوف والخسوف، وصلاة الحاجة، وصلاة الاستسقاء، وصلاة الشكر.

وبالجملة، فإن العبادات المتعدية أفضل بكثير من العبادات اللازمة نظرًا لكثرة المستفيدين من العبادات المتعدية، حتى أن ريعها يستمر بعد موت الإنسان رغم انقطاع سائر أعماله الأخرى.

هذا كله يتطلب منا أن نتفقه في الدين، بحيث نضع كل شيء في مكانه الصحيح وزمانه المعلوم بقدره المناسب، ولهذا قال ﷺ: "من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين" (متفق عليه)، والفقيه بهذا المعنى النبوي هو الحكيم بالمعنى القرآني الذي قال الله ﷻ عنه: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(البقرة:٢٦٩). بهذه المزاوجة في الأفعال الإيمانية، نستطيع أن نتدرج في معالي الرقي حتى نصل إلى فردوس الإيمان بمشيئة الله وعونه. ■

(*) أستاذ مشارك للفكر الإسلامي السياسي بجامعة تعز / اليمن.

د. العربي بوعياد*

نحو تصور إسلامي معاصر لقضايا العمران

هـل بإمـكان الإنشـاء الشـكلي أن يسـهم في إقامة مشـروعنا العمراني في هذا العصر؟ وما هـو البعد الـذي يمكـن أن تعبّر عنه رسـالتنا العمرانية في عصرنا وعالمنا؟

إن مصطلـح العمـران لا يسـتوعبه مصطلـح التعميـر لما عرَفـه هـذا المصطلح من تحولات في البيئة الغربية التي نشـأ فيهـا، لأن التعميـر مبالِغٌ في التمدن ولاغٍ لنمـط حياة البداوة ومهيـكل للبيئـة القروية وفـق نمط خاصٍّ لحياة فـي المدنية. فهـو "عمـران" اقترن وجوده بالعصر الصناعـي، لكن العمران -خلافًا لهذا الحصر- يستوعب كل أنماط حياة البشر، المدنيُّ منها والقروي والبدوي على السواء. فهو كما أقر العلامة ابن خلدون رحمه الله: اجتماع بشـري ضـروري لتبادل المصالح بيـن النـاس ليكْمُـل وجودُهم وما أراده الله مـن اعتمار العالم بهم ومن استخلافه إياهم.

أما "البنيان" فهو جزء من العمران وعنصر أساسي له، يمكّن مـن تنـاول تطور شـكل الحاضرة في بيئتهـا، ويمكّن من فهم الأجهزة التي تنظم العلاقات بين مكوّنات العمران المختلفة.

والفـرق بيـن البنـاء والبنيان فرق شاسـع، لكـون البناء لا يسـتوعب الأسـسَ النظرية للبنيان بحكم قيامـه على الوظيفة والمتانة. فالبنيان عبارة عن فقه نوازل حركة البناء لتلبية رغبات الإنسـان وحاجياتـه فـي إطار مـن تصـوره ومعتقداته، ضمن منظـور بيئـي وواقع معيّن لعمران يُسـهم في إنشـائه الجميع.

وبهـذا، احتـوت رسـالة البنيـان بعـدًا يعبّـر عـن الهويـة الجوهريـة للحضارة فـي البناء، وبعدًا يعبّر عـن الفترة الزمنية التي تأسـس فيها البناء، وعن انتسـابه المحلي والقومي. ولقد حمـل العمـران والبنيـان هـذه الرسـالة المزدوجـة فـي إطار الحضـارات السـابقة بما يعبّر عن البعديـن للهوية والقيم، إلا أن الغـرب قدّم نشـازًا منذ نهضته -وما سـمّاه بعصر التنوير-



فأقدم على تغييب البعد الثابت المعبر عن هوية البناء المعنوية وتجريده من قيمها النوعية، وهذا ما سنصطلح عليه بالعمارة الحداثية. فالعمارة الحداثية وما تقوم عليه من وظيفة ومتانة وجمال، اختُزلت رسالتُها في البعد المادي فقط والقيم التي ترتبط به. ولنا أن نتساءل: ما مدى الخطورة تجاه التعبير الحداثي السائد اليوم في الإنشاء العمراني؟ وأي مجال عمراني نريد؟ يقتضي الجواب على هذين السؤالين عرضًا منهجيًّا للقراءة الحداثية للمجال العمراني والإحاطة بجوانب المسألة. وحتى نستطيع تقديم عناصر في الحل وتناولَ القراءة الإسلامية في المجال، نحتاج إلى تقديم نتائج أهم محاولات التنظير الحداثي في هذا الميدان.

يعتمد مستوى الفكر في منهجية العمران الإسلامي، على إرث النبوة المتواصل الذي يمكّننا من أن نقدّم مشروعًا اجتماعيًّا محدَّد المعالم. وفي هذا المستوى، يتكوّن عند المعماري مشروعه للمجتمع والحياة وأسسُ مقاصد هذا المشروع وهنا تظهر أهمية الغايات.

القراءة الحداثية للمجال

إن القراءة الحداثية للمجال قراءة شكلية ناتجة عن غياب "منهجية" معتمدة في هذا الميدان. وكما حدث في مجالات أخرى، فلقد فقد التفكير في إيجاد المنهاج في العمارة الحماسةَ التي انطلق بها في الغرب خلال ما اعتبره نهضة وتنويرًا. فعند الانطلاقة -في إطار الثورة المعرفية في الغرب وخاصة خلال القرن الثامن عشر- كان الإصرار على البحث في مبادئ كونية وإجراءات عامة يمكن نقلها لكل العلوم، إلا أن النقد ظل قائمًا تجاه خصائص العمارة لكونها غير علمية ولصعوبة التحقق منها. ويمكن أن نقدم أهم محاولات التنظير الحداثية في هذا الميدان، محاولات عديدة ومتنوعة يتعيّن ترتيبها حسب أسسها الفكرية، وانطلاقًا من أهدافها.

يقدّم الترتيب الأول ما يمكن أن نلخصه في مجموعات من المفكرين من أمثال: المؤلفين الماركسيين وأهمّهم "تافُري"، البنيويين المتمسّكين بنظرية النُّسُق من أمثال "بودُن" و"شُوي" و"ألكساندر" في مرحلته الأولى، و"نُربِر شولز" والزوجين "دُبلاي"، البنيويين الجدد والظاهرانيين وأهمهم "بيريز كوميز" و"ألكساندر" في مرحلته الثانية.

وأما الترتيب الثاني فيقدّم مجموعات المفكرين بطريقة أخرى، فمنهم من حاول تأسيس نظرية علمية ومعرفية للعمارة مثل "بودُن"، ومنهم من وضع صُنافَةً لكتابة العمارة قصد البحث عن معالم استدلالية جديدة مثل "شُوي" التي حاولت أجرأةَ نصوص ونظريات عصر النهضة في كتابها "القاعدة والنموذج"، ومنهم من حاول توضيح التصوّر لاقتراح طريقة عقلانية لتلبية الحاجات وهذه أهم أهداف "ألكساندر" في مرحلته الأولى، ومنهم من ربط العمارة بالتيارات المعرفية السائدة مثل الزوجين "دُبلاي"، ومنهم من انطلق من نقد الأسس الفكرية للخطابات السائدة مقدّمًا أهم هذه المحاولات من أمثال "ألكساندر" في مرحلته الثانية، و"بيريز كوميز" الذي تناول دراسة العمارة في إطار ما نعته بـ"أزمة العلم الحديث".

وأيًّا ما كان الموقف والمحاولة وكيف ما كان الترتيب، يمكن اختزال أهم نتائج هذه المحاولات التنظيرية في نتيجتين اثنتين:

١- إعداد واقتباس مصطلحات جديدة تبيّن أنها غير عملية عند التطبيق وغير مُرضية ولا ذات قيمة من الناحية النظرية: "بودُن" و"ألكساندر" والزوجان "دُبلاي".

٢- تأسيس نظرية علمية ومعرفية في العمارة: "بودُن"، لكنها غير حاضرة في لحظة إنشاء المشروع وصياغته، مما أدى إلى رفضها من قبل أهل المهنة وعدم اهتمامهم بها.

فهذه المحاولات العديدة والمتنوعة باءت كلها بالفشل، لكونها أنكرت الأسس التي تقوم عليها عند التطبيق، ذلك لكون أصحاب هذه النظريات رفضوا أجرأتها على مستوى التطبيق، ولكونهم أيضًا لم يتناولوا علاقة العمارة مع الميادين المعرفية المجاورة لها في إطار المهنة، وأيضًا لوجود مسافات شاسعة في الفكر بين النظرية والتطبيق.

إن الغموض في المرور من النظرية إلى التطبيق، من أهم أسباب الفشل في إيجاد منهجية المقاصد في العمران الحداثي، وعلى وجه الخصوص في العمارة. ذلك أنه تم تجاهلُ الخطاب المتضمَّن في الشكل وكأن الشكل لا يحمل رسالة. والحقيقة أن الشكل هو الواسطة الأساسية للتعبير، إذ

إن له وجودًا في نسق واقع خاصٍ ذي دلالة رمزية وخطابية. ولمّا أصبح عمل الشكل في المنهجية الحداثية يكوّن الأساس من فعل الإنشاء، برزت عديد من التناقضات منها:

أ- إن "المناهج" التي تفرض نفسها في ميدان العمارة هي تقنيات في العمل الشكلي.

ب- إن "المناهج" التي ترفض التدخل المباشر في الشكل، تتحول إلى تقادمات تقنية مما أدى إلى أجرأة النظرية.

جـ- إن "المطلب النظري" -شئنا أم أبينا- أصبح هو العمل في الشكل.

نستخلص من هذا كله، أن مشكل الشكل يحرف كلَّ بحث في المنهاج للعمارة ويُصاب شيئًا فشيئًا بعدوى المشاكل الخطابية. وقد ارتبط وجود مشكل الشكل بآليات إبداع المعماري التي ارتبطت بدورها بالإستراتيجية المهنية. وعندما نتناول التطبيق بعيدًا عن التقنيات، تبدو المناهج وكأنها مجرد مشكل بسيط للخطاب كمن يهرِف بما لا يعرف. وهكذا، نجد أنفسنا في متاهة تتطلب -بداية- الخروج منها. فما المخرج إذن؟ لا شك أن الجواب على هذا السؤال الذي يفرض نفسه للحصول على عناصر في الحل، يقتضي اعتماد قراءة جوهرية لهذا المجال.

القراءة الجوهرية الإسلامية للمجال

لقد رأينا أن خطاب العمارة الحداثية، خالٍ من المبادئ المعبرة عن الهوية الحضارية والقيم المنبثقة منها، وأنه يعتمد قراءة شكلية تجعله منحصرًا أساسًا في تجليات العمارة الزمنية والمكانية، بينما يتضمن الشكل البنياني عند المسلمين، كلية الخطاب المزدوج المعبر عن الهوية والقيم الحضارية المتمثّلة في عوامل الحضارة الجوهرية، وعن تجليات هذه العوامل في الزمان والمكان، وهي قراءة جوهرية ومعنوية للمجال العمراني تمكّننا من تناول عناصر في الحل.

وحتى نكون مؤهّلين لذلك، يقتضي أن تتوفر فينا عناصر خمسة: تصورٌ للوجود، مُساءلةُ السياق الحضاري، إحضارُ إستراتيجية مهنية متجددة، تأسيسُ مشروع اجتماعي مستشرف للمستقبل، استحضارُ المستوى الذي يناسب المنهجية في البحث.

أما التصور للوجود، فهو مبني على البعد الرباني، ودور العقل لاستحضار هذا البعد فيه بعدٌ يشكّل منهاجًا لمقاربة الواقع والعمل فيه. فلا يمكن -مثلاً- أن نحلل دون تصور مؤطّر، والتصور الشامل المؤطّر عندنا هو "التوحيد".

ولن نسائل السياق الحضاري، إلا بحصول استيعاب للسياق التاريخي وإحكام التعبير عن مشاكل البنيان والعمران، إذ إن كل مجال وكل حضارة ينتجان وسائل معيّنة لوقوعهما وإنشائهما وتقويمهما.

أما الإستراتيجية المهنية فبحاجةٍ إلى تصور جديد للعمارة وإلى حرية يحظى بها المعماري، وقد تحددت علاقته مع الفاعلين الآخرين في حقل العمارة. والحرية هنا، منضبطة بالمسؤولية في الخبرة والإنشاء وكذلك في التربية والتوجيه.

ولن يتأسس المشروع الاجتماعي المستشرف للمستقبل، دون تواصل رسالة النبوة وتجددها وفعلها في الزمان على كل مستوى -فردي وجماعي- حيث يصبح الماضي فيه أحد أشكال الحاضر والمستقبل. ففي إطار هذا المشروع الاجتماعي بهذه المقاربة وهذا التصور، تتضح الغاياتُ وتستجيب العمارةُ للمتطلبات.

ولاستحضار المستوى المناسب للمنهجية، نتناول كل المستويات الفاعلة فيه بشكل هرمي في خمس مستويات: مستوى المذهب، مستوى الفكر، مستوى النظرية، مستوى المنهجية، مستوى التقنيات.

فلا ينبغي للبحث في منهجية العمران وإنشائه أن ينحصر في مسألة الإجراءات الشكلية منا، هو الشأن في القراءة الحداثية، بل يتعدى ذلك إلى حل إشكالية الإنشاء المعماري وإعادة صياغة المشروع في إطار هذا الهرم.

فعلى مستوى المذهب، لا يمكن أن نعمل على تغيير الواقع بمنأى عن التوحيد الذي يقدّم منهج مقاربة الوجود وشمولية التراكيب. في هذا المستوى تتجلى أهمية المبادئ المؤسسة للعمارة وثوابتها التعبدية والأخلاقية.

ويعتمد مستوى الفكر، على إرث النبوة المتواصل الذي يمكّننا من أن نقدّم مشروعًا اجتماعيًّا محدَّد المعالم. وفي هذا المستوى، يتكوّن عند المعماري مشروعه للمجتمع والحياة وأسسُ مقاصد هذا المشروع وهنا تظهر أهمية الغايات.

أما مستوى النظرية، فنستطيع أن نحدد فيه توجّهات البحث المنهجي للعمارة وغاياته، ومسؤوليةَ كل متدخل في عملية البناء، كما يمكن إثبات مكانة الشكل في مسار الإنشاء المعماري وتوضيح الإستراتيجية المهنية للمعماري، وفي هذا المستوى تكمن أهمية المقاصد.

ثم يأتي مستوى المنهجية، الذي هو الإطار لكل من يُسهم في عملية البناء، حيث يتم أيضًا إثبات طرق الانتقال من العمل الشكلي إلى العمل غير الشكلي، وعلى هذا المستوى تتجلى أهمية الأهداف الكامنة في الوظائف.

وأخيرًا يأتي مستوى التقنيات، المناسب للعمل الشكلي والهندسي المتغير أيضًا، الذي يتم فيه تحديد مواد البناء التراثية أو المعاصرة للمتانة، ومعاينة الوسائل الفنية لإضفاء مسحة من الحسن والجمال على العمارة.

وبهذا، يتضح أن البنيان الذي هو من أهم مكونات العمران، إن هو إلا بناء منضبط بأحكام وأصول ومبادئ وقواعد ومقاصد، يكوّن الشكلُ فيه الإطارَ المجالي الملبّي للمتطلبات من خلال الوظائف التي يحتويها، وتَلفُّه لمسةٌ من الجمال يبدعها المعماري.

يتضمن الشكل البنياني عند المسلمين، كلية الخطاب المزدوج المعبر عن الهوية والقيم الحضارية المتمثلة في عوامل الحضارة الجوهرية، وعن تجليات هذه العوامل في الزمان والمكان، وهي قراءة جوهرية ومعنوية للمجال العمراني تمكّننا من تناول عناصر في الحل.

خطاب الحضارة في البنيان

فالمجال العمراني إذن، هو الإطار الكامن لمضامين تعبّر عن أبعاد خطاب الحضارة في البنيان وما يترتب عنه من وظيفة ومتانة وجمال. وبهذا، يتجلى لنا أن للعمران والبنيان عند المسلمين هوية تحتوي عنصرين متكاملين: العنصر المعنوي النوعي الجوهري، وهو عنصر ثابت ومصدر يتعلق بالمبادئ المنزلة الموجهة لأسس الأعمال وهو العنصر الذي يتضمن مبادئ الهوية ومرجعيتها الربانية. العنصر الواقعي المادي الملموس، وهو عنصر قابل للتطور والتغير مرتبط بخصوصيات المجتمع وهو العنصر الذي يبرز المفاهيم المادية والزمنية للهوية.

وغالبًا ما تُكرر نتائجُ محاولات إبداع مجال جديد الحلول التاريخية المتمثلة في المدن العتيقة القائمة في بلادنا، فبقيت هذه المحاولات محصورة نسبيًا فيما يمكن أن ننعته بتقليد السابقين، وهو تقليد يضاف إلى تقليد الغرب الحالي.

وفي الأخير، إن تصور الحل الذي نقترح تصور مقاصدي، له من المرونة ما يحرر الشكل ويفسح أمامه مجالاً واسعًا من الاختيارات التي تغنيها القيم. وهو تصور يتبنى أيَّ تقنية تمكّن من الوصول إلى المقاصد. وهو تصور يتناول مستويات الحياة كلها؛ الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها. فالقضية قضية حضارية، والتصور تصور حضاري يحتاج إلى إرادة سياسية ووعي ثقافي وتأهيل اجتماعي وإصلاح اقتصادي، ويحتاج أن يتبناه المجتمع بكل مكوناته، ولا يبقى مقتصرًا على نخبة من المفكرين المختصين، بل يحتاج الأمر إلى تغيير حضاري شامل لأمة المسلمين وللبشرية.

وفي انتظار هذا التغيير الحضاري، يتعيّن على الذين يحملون همّ تأسيس هذا المشروع الذي يتجاوز الشكلي إلى الجوهري في أي مجال تخصصي، أن يعملوا -مرحليًا- على ملاءمة المقاصد مع متطلبات مهنتهم وملاءمة هذه المتطلبات مع المقاصد. فلا مفر لهم من امتلاك رؤية تغييرية وإصلاحية ناصحة تتسم بالشمول الذي يقتضي اكتساب منهجية المقارنة في معرفة الذات الحضارية ومعرفة الغير.

وفي الختام، لا مفر من التأكيد على المسؤولية الخاصة الملقاة على عاتق معماري اليوم، لما يتم عبر عمل في البيئة التعبير عن عوامل الحضارة الجوهرية في المكان، فمن المفروض أن يتحلى المعماري بخصائص ثلاثة: اكتساب رؤية شاملة وروح أهلية تمكّنانه من إبداع عمران جديد لما بعد الحداثة، الارتقاء إلى مستوى الانفتاح المتوازن نحو التخصصات المتنوعة المعنية بالعمران، القدرة على جعل حضوره الفعلي ضابطًا يوجّه باستمرار نحو الأهداف والغايات والمقاصد المحددة.

ويستطيع أي متخصص -بعد تمثل هذه الميزات- أن يستفيد من الوضع النوعي لأمتنا ليعرض للعالَم أجمع مظهرًا متميزًا؛ مظهر المتخصص النصوح والمستشار، المتخصص المربي، القادر على أن يسهم في إرساء قواعد النهضة المرتقبة التي ستكون -إن شاء الله- عالمية الموقع والفعل. ■

(*) أستاذ في التعليم العالي في المدرسة الوطنية للهندسة المعمارية في الرباط / المغرب.

معصوم محمد خلف*



الزخرفة الإسلامية

بين الرمز والدلالة

برع المسلمون في استعمال الخطوط الهندسية وصياغتها في أشكال فنية رائعة، فظهرت المضلعات المختلفة والأشكال النجمية والدوائر المتداخلة. وقد زينت هذه الزخرفة المباني كما وشحت التحف الخشبية والنحاسية ودخلت في صناعة الأبواب وزخرفة السقوف. ولئن كانت هذه الزخارف دليلاً على موهبة فنية عظيمة، فهي أيضًا دليل على علم متقدم بالهندسة العملية.

والزخرفة الهندسية ذات أهمية خاصة في الفن الإسلامي، ولعل أهميتها تلك نتيجة مطابقتها للمواصفات التي يقبلها المنهج الإسلامي، وهذا ما يفسر لنا ذلك الأثر الكبير الذي تفرضه على كل الفن الإسلامي، إذ أصبح الأسلوب الهندسي واحدًا من الأساليب التي طبعت الزخرفة النباتية نفسها بأسلوبها، فكثيرًا ما جاءت هذه الزخرفة بإخراج هندسي عجيب، بل إن الكتابة نفسها -وهي الفن الإسلامي الآخر- كثيرًا ما تفنن في إخراجها الفنان المسلم فجاءت في قوالب هندسية متنوعة الأشكال. لقد استطاعت الهندسة أن تفرض سيادتها في الفن الإسلامي، وذلك بغلبتها على شبق الأشكال كما يقول "جارودي".

ولا يفوتنا هنا، أن نذكر ما كان للفرجار من دور في تقدم هذه الزخرفة وسيادتها. فقد كان للدائرة دور كبير في هذا العطاء غير المحدود من الأشكال، يؤكد هذا ويوسع مساحته ملء بعض المساحات وترك غيرها فارغة.

الحسابات الهندسية عند المسلمين

فالزخارف الإسلامية الهندسية بلغت ذروة نضوجها الفني بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر الميلاديين، حيث كانت موضع دراسة علمية نشرت في مجلة "العلم والحياة"

الفرنسية ملخصًا عنها في شهر أبريل من عام ٢٠٠٧. واستنادًا إلى تلك الدراسة التي أعدها العالمان "بيتر لومن" من جامعة هارفرد و"بول ستاينهاردت" من جامعة برنستون، فإن الفنانين المسلمين اعتمدوا في تصميم هذه الزخارف على حسابات هندسية لم يتوصل إليها العلماء الغربيون إلا في سبعينيات القرن العشرين.

ورأى العالمان الأمريكيان، أن الانطلاق من شكل هندسي بسيط في رسم امتدادات له، تتقاطع وتتشابك لتشكل جملة أشكال لا تتكرر أكثر من مرة في رسم، يبقى محافظًا على وحدته وتجانسه.

وقد استطاع المسلمون استخراج أشكال هندسية متنوعة من الدائرة، منها المسدس والمثمن والمعشر، وبالتالي المثلث والمربع والمخمس. ومن تداخل هذه الأشكال مع بعضها وملء بعض المساحات وترك بعضها فارغًا، نحصل على ما لا حصر له من تلك الزخرفات البديعة التي تستوقف العين لتنقل بها رويدًا رويدًا من الجزء إلى الكل، ومن كل جزئي إلى كل أكبر.

ولقد كان "هنري فوسيون" دقيق التعبير عميق الملاحظة حينما قال: "ما أخال شيئًا يمكنه أن يجرد الحياة من ثوبها الظاهر وينقلنا إلى مضمونها الدفين، مثل التشكيلات الهندسية للزخارف الإسلامية. فليست هذه التشكيلات سوى ثمرة لتفكير قائم على حساب دقيق قد يتحول إلى نوع من الرسوم البيانية لأفكار فلسفية ومعان روحية، غير أنه ينبغي ألا يفوتنا أنه خلال هذا الإطار التجريدي، تنطلق حياة متدفقة عبر الخطوط فتؤلف بينها تكوينات تتكاثر وتتزايد، متفرقة مرة ومجتمعة مرات، وكأن هناك روحًا هائمة هي التي يصلح لأكثر من تأويل يتوقف على ما يصوب عليه المرء نظره ويتأمله منها وجميعها، تخفى وتكشف في الواحد عن سر ما تتضمنه من إمكانات وطاقات بلا حدود".

ترتكز الزخرفة الإسلامية على أسس عميقة الجذور تنبع من الدين والتقاليد المتوارثة. وإن العلاقة الحميمة بين الإسلام وفن العمارة والزخرفة وبناء المدن، فهي بمجملها تعكس روح الدين والخطوط الكبرى التي رسمها لحياة المسلم.

زخرفة تنبع من الدين والتراث

للزخرفة الإسلامية مزاياها وأشكالها الخاصة التي تميزها عن سواها من زخرفة غربية أو آسيوية أو أفريقية. ولا غروَ وإن هذه الزخرفة المستمدة من تراث شرقي-عربي قديم، غلب عليها منذ مجيء الإسلام الطابع الديني وما زال حتى يومنا. وهذا الطابع لا يخضع لمنظومة موحدة، خصوصًا وأنه تطبع بالأشكال والألوان والمواد المستعملة التي كانت سائدة في العالم الذي دخله الإسلام، وهذا العالم كبير يمتد من الصين حتى الأطلسي.

حيث ترتكز الزخرفة الإسلامية على أسس عميقة الجذور تنبع من الدين والتقاليد المتوارثة. وقد هدف البناؤون والفنانون المسلمون في أعمالهم، إلى إبراز خصوصية هذه التقاليد التي غلب عليها الإسلام منذ أن جاء. من هنا نرى العلاقة الحميمة بين الإسلام وفن العمارة والزخرفة وبناء المدن -رغم الاختلافات السطحية التي نشاهدها- فهي بمجملها تعكس روح الدين والخطوط الكبرى التي رسمها لحياة المسلم إجمالاً والعربي تحديدًا.

وكلها تعتمد على ما أسماه بعض مؤرخي الفن الإسلامي؛ السكينة والراحة الروحية والجسدية والتأمل والبساطة. ومن هنا نرى كم اعتمد فن الزخرفة الإسلامي على الألوان والضوء ووسع المساحات.

إن عناصر الزخرفة الإسلامية فيمكن اختصارها بستة عناصر هي: فن الخط، الهندسة، الرسوم الطبيعية، الحيوانات، الضوء، الماء. وكلها عناصر جالبة للراحة والسكينة والهدوء أكثر من كونها تعتمد على العظمة الفردية كتصوير الأشخاص البارزين أو العظمة المعمارية، حيث ترتفع القصور الشامخة ودُور العبادة الضخمة المزينة بكل أنواع الرسوم والتماثيل والمدافن

المرتفعة المقامة تخليدًا للقابعين في الأرض. وقد كتب في هذا المجال المعماري البريطاني "أون جونز" في القرن التاسع عشر، أن المبدأ الأساس في فن العمارة هو زخرفة المبنى لا بناء الزخرفة وهذا ما اعتمده البناؤون المسلمون. وكما يضيف "جونز": لا نجد إطلاقًا زخرفة فاقدة الهدف أو زائدة أو غير ضرورية في الفن الزخرفي الإسلامي، إنها زخرفة طبيعية وواقعية.

التناسق الهندسي واستنباط أنماط جديدة

وأبرز عناصر الزخرفة الإسلامية هو فن الخط العربي. فكل كلمة عربية ملفوظة أو مكتوبة منذ أن نزل القرآن، أصبحت كلمة الله، وبالتالي اعتمدها الفنانون في أعمالهم الزخرفية أو التجميلية. فما من بناء أو صرح إسلامي يغيب عنه فن الخط، فلابد من آيات تكتب على المدخل وفي القاعات والغرف، إنْ على حجارة البناء أو الخشب المستعمل أو في الرسوم، وغالبًا ما تضاف إلى الآيات أسماء أصحاب البناء وتاريخ الإنشاء والذين صمموا أو نفذوا العمل، وقد يُكتفى أحيانًا بذكر اسم الله ﷻ مكتوبًا ومكررًا أو اسم الرسول الكريم محمد ﷺ مكتوبًا ومكررًا.

العنصر الثاني هو الفن الهندسي الذي أدخل عليه المهندسون المعماريون المسلمون نماذج لم تكن معروفة أو معتمدة من قبل، وهذه النماذج والأنماط تُظهر حب المسلم إلى التناسق الهندسي والتكرار واستنباط أنماط جديدة أو استحضار الماضي البعيد السابق للإسلام. وليس من شك أن الفنان المسلم، عرف كيف يمازج بين المساحات والأجزاء وبين الجمال الهندسي والضوء واللون، إنْ في العمارة نفسها أو في الفرش الذي اعتمده.

أما العنصر الثالث -أي الرسوم الطبيعية- فالفنانون المسلمون اعتمدوا إلى حد كبير في أعمالهم الزخرفية على الرسوم المنقولة من الطبيعة بدقة وإتقان بارزَين، فقد رسموا النباتات والأزهار على الجدران والأقمشة وأشياء أخرى عديدة. وقد برز هذا العنصر فيما سمي عالميًا بـ"الأرابسك" أو "الزخرفة النباتية الهندسية" التي تُظهر النباتات من أشجار وجنبات وأعشاب على طبيعتها من دون إضافات أو تبديل. فنحن نرى شجرة نامية تتشعب أغصانها وتبرز أوراقها بألوانها الطبيعية وتتفتح أزهارها التي لا تذبل.

لم يشجع الإسلام الفنان المسلم على رسم الإنسان أو الحيوان، لذلك لا نرى إلا القليل من رسوم يبدو فيها حيوان أو إنسان. فهذان المخلوقان المتحركان هما -في ضمير المسلم ومعتقده- من خلق الله، وبالتالي يستحب تجنب إعادة خلقهما في الرسوم والأعمال الزخرفية.

أما الضوء فهو بالنسبة للمسلم عامة وللناطقين بالعربية بنوع خاص رمز الوحدة الإلهية، فضلاً عن أن الطبيعة التي يعيش في كنفها تمتلئ نورًا وضوءًا أكثر من أي طبيعة أخرى. من هنا كان الضوء عاملاً مهمًا في الزخرفة المعمارية الإسلامية، أن في شكل البناء وما يتخلله من فسحات كبيرة وفناءات، وأن في الداخل حيث غلبت الألوان الفاتحة أو الزاهية في طلاء الجدران وفي الفرش من مقاعد وسجاد ومتكئات.

يغلب الحَرّ على أكثر البلدان العربية والإسلامية، من هنا ركز المعماريون وفنانو الزخرفة كثيرًا على أن تشمل الماء -بركًا داخلية أو صورًا جدارية للجداول والأنهار- المباني التي صمموها قديمًا وحديثًا. فكانوا بذلك يتجاوبون مع تعطش العربي والمسلم للماء، فإذا هو فقدها فعلاً بسبب شحتها فلا بأس أن يمتع النظر بزخرفة تجلب إليه هذه المسرة.

هذا وتعد الزخرفة والتزيين واحدة من أهم الفنون الإسلامية عراقة، حيث تشكل سيمفونية شرقية حالمة الألوان متناغمة الألحان، نستشف من ألقها الصلة الحميمية بينها وبين فن الخط في محور تكاملي يمثل القاعدة السليمة لجوهر الفن الإسلامي.

هذا وتتمتع الزخرفة الإسلامية أيضًا بمواصفات محدودة ومقاسات مضبوطة، وهي مجموعة من الباقات التي يتم توزيعها على ساحة العمل الفني من كتاب أو مخطوط أو زاوية من إحدى الزوايا، كما أنها عمل تنسيقي يعطي للمتلقي أولوية الاطلاع والبحث في أروقة تلك اللوحة من جهة، ومن جهة أخرى يضعك أمام حديقة غناء تنبعث من أرجائها علامات الطمأنينة والعظمة والوقار. وإن أول عمل نستطيع أن ننظر إليه بتمعن، هي الزخرفة التي تضفي على العمل الفني قداسة وألقًا وضياءً. ■

(*) كاتب وباحث سوري.

د. حامد عطية محمد*

كن ذكيًا وفطنًا كثير الدهاء وعظيم الحذر.. إذا نصبتك الأقدار لعظائم الأمور فلا تغامر فتندم.. بلا إعداد جيد لا تقدم على شيء.. بلا تأهب كامل لا تتحرك.. فالجمود على الذي عندك خير من حركة يتبعها أذى، وخير من مغامرة قد تودي بماضي العمل وحاضره ومستقبله.

* * *

آيات الرحمن في تكوين لبن الأنعام



لقد أدرك البشر منذ زمن بعيد العلاقة بين إدرار اللبن وما يتناوله الحيوان من غذاء، وأن الحيوان يهلك إذا ما حرم من الغذاء، ولكنهم لم يعرفوا العملية التي يتم بها تحوّل هذا الغذاء إلى لبن أو لحم أو عظم أو أي مادة أخرى. وجاء العلم الحديث ليبين لنا مراحل تكوين اللبن خالصًا سائغًا للشاربين، فيكشف لنا من آيات الله اللطيف الخبير ما جاء مطابقًا لما أخبرنا به القرآن عن أسرار تكوّن اللبن في بطون الأنعام، ويظهر عظمة إنعام الخالق المنعم على عباده.

استطاع العلماء حديثًا معرفة كيف يتكوّن اللبن في بطون الأنعام بعد اكتشاف أسرار الجهاز الهضمي ومعرفة وظائف أعضائه، وبعد اكتشاف الدورة الدموية وعلاقتها بعملية امتصاص المواد الغذائية من الأمعاء ودخولها في الدم. وقد استغرق ذلك فترة من الزمن لتطوير الأجهزة واكتشاف الأسرار استمرت قرابة خمسة قرون.

وقد سلك العلم التجريبي طرقًا دقيقة لمعرفة وظائف أعضاء الجهاز الهضمي، بعد أن اختُرعت الآلات التي تم بها إجراء التجارب والأبحاث لتحقيق النتائج الدقيقة. وسار التقدم في الأجهزة العلمية التي استعملت في معرفة أسرار عملية الهضم بخطوات

متتالية، حتى انكشف للباحثين الكثير من أسرار الهضم.

تم التوصل في القرن العشرين إلى توضيح الأعمال المتتالية لعملية الهضم، كما تم توضيح تركيب وتأثير أهم العصائر الهضمية، والتثبت من أنزيمات عديدة ذات دور كبير في عملية الهضم.

والإعجاز اللغوي في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾(النحل:٦٦)؛ ذُكرت "عبرة" هنا بصيغة نكرة حيث تعتبر دليلاً على أهميته الفائقة. وكما يقول "الراغب" في كتاب "المفردات": "عِبرَة" من مادة "عَبْر" وتعني العبور والانتقال من حالة إلى أخرى، وهنا حيث يرى المعتبر حالة يدلك من خلالها على حقيقة لا يمكن ملاحظتها، أطلقوا على ذلك "عِبرة". وعليه فإن مفهوم الآية هو؛ بمقدوركم أن تصلوا إلى معرفة الله وعظمةِ وعلمِ وقدرةِ مبدىء الخلق العظيم، من خلال ملاحظة أسرار وعجائب الحيوانات. "الفرث" هو ما في الكرش، وقيل هو "السرجين" ما دام في الكرش.

في هذه الآية الكريمة يلفت الله نظرنا إلى ظاهرة عجيبة تحمل لنا العبرة من قدرة الخالق ﷻ. فاللبن الذي يعتبر من أهم الأغذية عند الإنسان، يخرج إلينا من بطون الأنعام بعملية مدهشة.



كيف يتكون اللبن؟

يتم تكوين اللبن في الأنعام بالتنسيق المحكم والتدرج الدقيق بين الجهاز الهضمي والجهاز الدوري والجهاز التناسلي عن طريق الغدد اللبنية في الضروع وغيرها من الأجهزة، حيث جعل الله ﷻ لكل جهاز وظيفة وأعمالاً خاصة يقوم بها ليتكون -في نهاية المطاف- اللبن الخالص السائغ للشاربين. ويمكن أن نجمل مراحل تكوّن اللبن كالآتي:

١- عملية الهضم في الكرش (تحول العلف إلى فرث): يتم الهضم على عدة أشكال؛ فمنه الهضم الحركي، والهضم الكيماوي، والهضم الميكروبي بواسطة "خمائر" الميكروبات الموجودة في كرش الأنعام، حيث تبدأ عملية الهضم في الفم بنوعيها "الهضم الحركي" و"الخمائري"، حيث يتم تقطيع مواد العلف بالمضغ وخلطها باللعاب الذي يحتوي على أنزيم "الأميليز" الذي يقوم بهضم مبدئي، ثم في المعدة المركبة، حيث يتم هضم ميكانيكي وميكروبي وكيماوي، ثم يتم اجترار الكتلة الغذائية من الكرش إلى الفم ليعاد مضغها وخلطها باللعاب، ثم إعادة بلعها لتعمل عليها بكتريا الكرش فتحلل "السكريات" و"البروتينات"، ثم يحدث الهضم الخمائري في المعدة الحقيقية بـ"الببسين والرنين". وبعمليات الهضم هذه يتحول العلف إلى فرث، ويتحول الفرث الصلب بعد هضمه في الأمعاء إلى فرث رائق.

٢- عملية استخلاص الأحماض الدهنية من بين الفرث: يحدث تخمر وتغيير في تركيب الفرث من جراء هدم قلورا الكرش لهذا السليلوز والمواد السكرية، مما يؤدي إلى إنتاج ثلاثة أحماض دهنية وهي؛ حمض الخليك وحمض البيوترك وحمض البروبيونيك. فتمتص الشعيرات الدموية المنتشرة حول الكرش هذه الأحماض، وذلك دون مرورها في القناة الهضمية إلى الأمعاء كما هو متبع مع باقي الغذاء، كما بينت الآية الكريمة: ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾(النحل:٦٦) فتصل إلى الغدد اللبنية.

وبانتقال الفرث إلى الأمعاء الدقيقة تستمر عملية الهضم، فيتعرض الفرث للأنزيمات الهاضمة في الأمعاء والبنكرياس والعصارة الصفراء في الكبد. وبهذا يتم تحليل الأطعمة المحتوية على الجزيئات المعقدة جدًّا إلى جزيئات بسيطة؛ فالنشاء والسكريات المعقدة تتحول إلى سكريات بسيطة، والدهون تتحول إلى أحماض دهنية، والبروتينات تتحول إلى أحماض أمينية وببتيدات، أما الفيتامينات والأملاح والماء



فـلا تحتاج إلـى هضم قبـل امتصاصها، كما تقـوم الخملات فـي الأمعاء الدقيقة بامتصـاص المـواد الغذائية المحللة بعدة طـرق. وتصل هذه المواد إلى داخل الأوعية الدموية الصغيرة الواقعـة تحت النسـيج الطلائـي، ومنها إلى الأوعيـة الدموية الأكبر فتدخل في تيار الدورة الدموية.

٣– عملية اسـتخلاص من بين الدم: يتم تكوين اللبن بواسطة الغدد الثديية أو الضرع عن طريق عمليتين هامتين:

العملية الأولى: ترشـيح بعض مكونـات اللبن من مجرى الـدم، حيث يقـوم الدم بنقل هـذه المواد الغذائيـة إلى جميع خلايـا الجسـم، والتـي منهـا خلايـا الضـروع التي يتـم فيها امتصاص مكونات الحليب من بين الدم.

حمـض الخليـك يقـوم بتكويـن دهـن اللبـن، وحمـض البيوتـرك يقـوم بتكوين بروتيـن اللبن، وحمـض البروبيونيك يقوم بتكوين سـكر اللبن. ووجود الدهن في اللبن هو السبب فـي وجود الطعم المستسـاغ له، وكلما قلت نسـبة الدهن قل استسـاغة طعـم اللبن عند الشـرب. كما وجد أيضًـا أنه كلما زادت نسـبة السليلوز في الغذاء زادت نسبة حمضي الخليك، وبذلك تزيد كمية الدهن في اللبن وبالتالي تزداد استساغته.

أ–تكوين الأحماض الدهنيـة في اللبن: غالبية الدهون في اللبـن تنتـج أصلاً من الزيوت والدهون النباتية المسـتمدة من العلف والمهضومة هضمًا جزئيًا في معدة الاجترار (الفرث)، ثم ينقلها الدم إلى الغدد المفرزة للبن في الضرع، وهنا تتكسر إلـى رقائـق صغيرة حتى تتمكن من اختـراق جدر خلايا تلك الغـدد. وعلـى ذلك فـإن تمام عمليـة اجترار الأعـلاف التي يتناولهـا الواحـد مـن الأنعـام بكفـاءة، وعمليـة تخمرهـا في معدة الاجترار بكفاءة، مسـؤولان عن زيادة أو نقص الدهون فـي اللبـن. وفـي اللبن، العديد مـن المركبات التـي تنتج عن تخمـر العلف في معدة الاجترار، لتكوين عدد من الأحماض الدهنيـة المتطايـرة التي تذهب إلى الكبد لإنتاج سـكر العنب (الجلوكـوز) الـذي يحمله الدم إلى الخلايـا المفرزة للبن في الضروع فينتج منه سكر اللبن (اللاكتوز).

ب–تكويـن المواد البروتينية في اللبن: أمـا المواد البروتينية فتنتـج في الخلايا المفـرزة للبن من الأحمـاض الأمينية التي يحملها إليها الدم من معدة الاجترار (الفرث)، هذا باستثناء كل مـن المواد الزلالية والجلوبينـات المناعية (Immunoglobulins) التـي ينقلهـا الـدم مباشـرة إلـى الخلايـا المفـرزة لـه، واللبأ (Colostrum) الـذي يتكـون فـي الفترات المتأخـرة من الحمل في أماكن أخرى من جسـم الحيوان، وينقله الدم مباشـرة إلى ضروعه.

ج–تكوين الأملاح المعدنية والفيتامينات: في اللبن العديد مـن آثـار العناصر التي مـن أهمها الكالسـيوم، والفوسـفور، والبوتاسـيوم، والمغنيسـيوم، ويليهـا فـي الأهميـة كل مـن الصوديـوم والكلـور، وكلهـا مسـتخلصة مـن غـذاء الحيوان (العلف) بعد تخمره في معدة الاجترار (الفرث).

العمليـة الثانية: تركيـب مكونات اللبن الأخرى بواسـطة التمثيل الغذائي الخلوي، وهي تركيب مكونات اللبن الأخرى بواسـطة التمثيـل الغذائـي الخلـوي داخـل الأسـناخ، حيـث تمـر المـواد الغذائية المسـتخدمة فـي تكوين اللبـن من الدم خـلال جـدار الخلية. فقد وجـد أن بروتينات اللبـن تنتج من الترشـيح والتركيـب معًا، حيث أن الكازيـن واللاكتوالبيومين واللاكتوجلوبيوليـن غيـر موجـودة فـي الـدم، ولذلك يجب تركيبهـا مـن طلائع الأحمـاض الأمينية المتواجـدة في الدم، وتمثـل هذه البروتينات ٩٤٪ تقريبًا مـن النيتروجين البروتيني فـي اللبـن البقـري. أمـا الجلوبيولينـات المناعيـة وألبيوميـن السـيرم فهي مصنفة في الدم واللبن، ولذلك نجد أن انتشارها

ظاهريًّا فـي اللبن لا يتغير عنه في الدم، أمـا الكربوهيدرات الأساسـية في اللبن هي سـكر اللاكتوز، والـذي يتكون من جـزيء جلوكـوز وجـزيء جالاكتـوز، ويحتوي الدم على سكر الجلوكوز، أما اللاكتوز فلا يوجد في الدم، ولذلك يتم تركيبه في الغدة الثديية.

وقد وجـد أن الجلوكـوز يتم أخذه بواسـطة "الأنسـجة الثديية" (Mammary Tissues) ممـا يـؤدي إلى فقـدان حوالي ٢٥٪ مـن محتـوى جلوكـوز الـدم الشـرياني، مـن ناحيـة أخـرى وجد أن حوالـي ٧٠-٨٠٪ مـن الكربـون فـي اللاكتـوز، يتـم الحصـول عليـه مـن "البلازما جلوكوز" (Plasma Glucose)، كما ينتج سـكر اللاكتوز أيضًـا من الأحماض الدهنيـة قصيرة السلسـلة (Short- Chain Fatty Acids). وبالنسبة للدهن فقد وجد أن ٧٥٪ من دهن اللبن (Milk Fat) تقريبًـا يصنـع في الغـدد الثديية،/ وفـي المجترات (Ruminants) يكوّن الخلات (Acetate) وهي الطلائع الأساسـية للأحماض الدهنية ذات سلسلة الكربون الطويلة.

ويمثـل المـاء معظـم تركيـب اللبـن (٨٧٪)، حيـث يتـم ترشـيحه من الدم إلى اللبن وهو يختلف عكسـيًّا مع محتوى المواد الصلبة للبن (Total Solids).

٤- عملية تكوين وإفراز اللبن: لابد قبل شـرح عملية تكوين اللبـن أن نشـير إلـى إعجـاز الخالـق ﷻ في تركيـب ضروع الأنعام:

التركيــب التشــريحي للضرع: صمـم الخالـق ﷻ ضروع الأنعـام وضـروع غيرها من الحيوانات الثدييـة بحكمة بالغة، كي يمكنها من إنتاج اللبن لإرضاع صغارها واستفادة الإنسان منـه. فضروع الأنعـام رباعية التركيب، وتتدلـى أربطة خاصة مـن الحوض لرفعها وحمايتها، ممـا تتعرض له من صدمات خاصة عندما تمتلئ باللبن ويثقل وزنها.

وكل ربـع مـن الضـرع يعمل مسـتقلاً في إنتـاج وتخزين اللبن، وهو يتكون من العديد من الغدد اللبنية المبطنة لجداره والمتصلة مع بعضها البعض بالشعيرات الدموية المغذية لها، وينتهـي الضـرع بالحلمة التـي تمثل نهاية قنـاة اللبن ويحكم شـكلها ووضعها وطولهـا، والعضلات المتحكمة فيهـا ضوابط وراثية في غاية من الدقة تحكم تدفق اللبن فيها، وتمنع تسـربه منهـا إلا عنـد الضـرورة، كمـا تضبـط إحـكام غلقها حتى لا تتسـرب إليـه البكتيريـا وغيرهـا مـن الملوثـات الحيويـة وغيرها. والغدد اللبنية المبطنة لضـروع الأنعام، هي غدد ذات فراغات كبيـرة (أسـناخ) يتكـون فيهـا اللبـن باسـتخلاصه من الشرايين الحاملة للدم المؤكسـد، والأوعيـة اللمفاوية الحاملة لسـوائلها العديمة اللـون (الليمف) وما بها من مواد غذائية مسـتمدة من الفرث المهضوم في معدة الحيوان. وهذه الغدد المفـرزة للبـن والتي تبطن فراغات أسـناخ الضرع تتكون من خلايـا متخصصـة على أعلى درجات التخصـص، حيث إنها تتحكم -بمشيئة الله- في كمية اللبن المفرز وتركيبه، وهي في نفس الوقت محكومة بسـنن وراثية منضبطة. وبالنسـبة لأنثى الأنعام الحامل، فإنه عند اقتراب وقت المخاض فإن جسمها يفـرز عددًا مـن الهرمونات الخاصة التي تضعـف من ارتباط الجنيـن بجسـم الأم عن طريق المشـيمة بالتدريـج، وتثير في الجسم كله تحرك المركبات.

فلمـا تكاملت صناعـة الأجهزة والتجارب العلميـة عبر قرون، عـرف الإنسـان أن مكونـات اللـبن تستخلـص بعـد هضـم الطعـام من بين الفـرث، وتجري مـع مجرى الدم لتصـل إلى الغدد اللبنيـة في ضروع الإنـاث التي تقوم باستخلاص مكونات اللبن مـن بـين الـدم دون أن يبقى أي آثار في اللبن من الفرث أو الدم.

أ-مراحـل تكويـن اللبــن: أثبتـت الأبحـاث عـن طريق اسـتخدام النظائـر المشـعة داخل الضرع، أن أهـم المكونات الخاصـة باللبن يتـم تخليقها داخل الضرع في الأبقار. وهناك كثيـر من مكونـات اللبن لم يتم التعرف علـى طريقة تخليقها في اللبن حتى الآن، وبعض العلماء يعتقد أن هذه المكونات يتـم تخليقهـا على مراحل متتالية ومعقدة مـن الصعب تتبعها حتـى الآن. وفي الواقع فـإن عملية انتقال المكونات من الدم إلـى اللبـن تخضع إلى عدة عوامل منها: ألا يزيد ضغط اللبن داخل البصيلات عن ضغط الدم داخل الشرايين المغذية لها، وذلك لضمان استمرارية انتقال المكونات من الدم إلى اللبن بطريقـة طبيعيـة. وتعتبر عملية الضغط داخـل البصيلات، من الأمـور الهامة التي تؤثر بطريقة مباشـرة أو غير مباشـرة على سرعة عملية الحليب في المزارع.

ب-مرحلة إفــراز اللبن: تقـوم الحويصلات اللبنيـة بإفراز

اللبـن، وفيها يفـرز اللبـن مـن سـيتوبلازم الخلايـا المبطنـة للحويصلات اللبنية إلى فراغ الحويصلات، ويتم الإفراز تحت تأثيـر هرمونـات البرولاكتين والإسـتروجين والبروجسـترون وبعـض الإسـترولات المفرزة من غدة فـوق الكلية بالإضافة إلـى هرمـون الثيروكسـين. ومن أهـم العوامل التـي تقلل أو تمنع إفراز اللبن أثناء الحمل، هو زيادة نسـبة الإسـتروجينات المشيمية أثناء الحمل.

جـ-مرحلة إخــراج اللبن: وفي هذه المرحلـة، يبدأ خروج اللبن من القنوات اللبنية والفجوات الحويصلية (مخزن الضرع) عن طريق الحلمات إلى خارج الضرع. وتنظم عملية الإخراج هـذه العضلات اللاإرادية المبطنـة للقنوات اللبنية، والتي تقع بدورها تحت تأثير هرمون الأكسيتوتسـين (Oxytocine) والذي يفـرز من الفص الخلفي للغـدة النخامية. ويحتاج تفريغ اللبن مـن الضرع إلى رفع الضغط الداخلـي للغدة اللبنية وفتح قناة الحلمـة. وتتم هذه العملية بتأثير الجهـاز العصبي والهرموني للحيـوان، حيـث يبـدأ بتعـرض الحيـوان -عـادة- للمنبهات المختلفـة المصاحبـة لعمليـة الحلـب (مثل أصـوات جرادل الحليـب أو ماكينة الحليـب الآلي أو صوت الحلاب وخلافه مما يصاحب عملية الحليب وسـبق أن تعـوّد عليها الحيوان) ينقل تأثير هـذه المنبهات إلى الهيبوثالاموث الذي ينقلها عن طريق الألياف العصبية إلى النخامية الخلفية التي تفرز بدورها هرمون الأوكسيتوتسـين في الدم. يصـل هذا الهرمون الأخير إلى الخلايـا المغلفة للبصيلات التي تنقبض لتفرغ محتوياتها فـي الغـدة اللبنيـة، مما يزيد مـن الضغط داخل الغـدة ويدفع اللبـن، بالتالـي نتيجـة عملية الحلـب وفتح قنـاة الحلمة إلى الخارج. وفـي حالة انزعاج الحيوان نتيجة أي مؤثر خارجي، فـإن ذلـك يـؤدي إلى انخفـاض الضغـط داخل الغـدة اللبنية مما يسـتحيل معه تفريغ الضرع للبـن. ويرجع ذلك إلى إفراز هرمـون الأدرينالين الذي يؤثر على خفـض الضغط الداخلي للغدة. وعادة ما يزول إفراز هذا الهرمون بزوال المؤثر، حيث يعود الضغط داخل الغدة إلى ما كان عليه في الحالة الطبيعية.

وبالرغـم مـن أن هـذا الجزء مـن الضرع يختـزن كمية لا بـأس بها من اللبـن، يظل جزء كبير من اللبـن الكلي موجودًا عند الحلب في فراغات التخزين الصغيرة والقنوات الشـعرية وتجاويف الأنسـاخ والخلايـا الطلائية المفـرزة. وقد قدرت بعـض الدراسـات متوسـط مـا تنتجـه كل ربـع أمامـي (Fore Quarter) بحوالـي ٢٠٪ مـن اللبن، بينما ينتـج كل ربع خلفي (Hind Quarter) حوالـي ٣٠٪، فـي حين ينتـج النصف الأيمن والنصف الأيسر للضرع -كلاًّ على حدة- حوالي ٥٠٪ تقريبًا مع وجود تباين فردي من حيوان لآخر.

وجه الإعجاز في تكوين اللبن

مـا كان أحد يعلم قبل اكتشـاف أجهزة التشـريح فـي القرنين الماضيين، أسـرار ما يجري في الجهاز الهضمي عند الحيوان والإنسـان، ووظائـف ذلك الجهـاز المعقد وعلاقتـه بالدورة الدمويـة ومراحل تكوّن اللبن في بطون الأنعام. فلما تكاملت صناعة الأجهزة والتجارب العلمية عبر قرون، عرف الإنسـان أن مكونات اللبن تستخلص بعد هضم الطعام من بين الفرث وتجـري مع مجرى الـدم لتصل إلى الغـدد اللبنية في ضروع الإناث التي تقوم باستخلاص مكونات اللبن من بين الدم دون أن يبقى أي آثار في اللبن من الفرث أو الدم، وتضاف إليه في حويصلات اللبن مادة سكر اللبن التي تجعله سائغًا للشاربين. هذه الأسرار كانت محجوبة عن البشر، فلم يكتشفوها إلا بعد رحلـة طويلة من التجارب والبحوث العلمية التي اسـتغرقت قرونـًا، واسـتعملت فيها أجهزة صنعـت لأول مرة على أيدي الباحثين لم يكن لها وجود عند البشر قبل ذلك. ولكن القرآن الكريم كشـفها أمام قارئيه بأجمل عبارة وأوجز لفظ قبل ألف وأربعمائة عام. فمَن علّم محمدًا ﷺ مِن بين سـائر البشـر في ذلك الزمن أسـرار الجهاز الهضمي والجهاز الدوري ودقائق مـا يجري فـي غدد اللبـن، إلا الـذي يعلَم السـر في الأرض والسماء ويعلَم أسرار ما خلق من الكائنات.

وكذلـك أشـار النبي ﷺ إلى قيمة اللبـن الغذائية المتميزة، فـي زمن لم يكن يدرك النـاس تركيب اللبن وما يحتوي عليه مـن عناصر ومركبـات الغذاء الحيوية المهمـة التي لا تجتمع في شراب غيره. ثم لمّا تقدم العلم وتوفرت الأجهزة، توصل العلماء والباحثون إلى اكتشاف هذه المواد الغذائية التي يحتوي عليهـا اللبـن من البروتينـات والكربوهيدرات، والسـكريات، والدهـون، والمعادن والفيتامينات وغير ذلك. كل ذلك يكون شاهدًا على أن القرآن نزل بعلم الله ﷻ وأن محمدًا ﷺ رسول الله، قـال تعالـى: ﴿لَكِنْ اللهُ يَشْـهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْـكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا﴾(النساء:١٦٦). ■

(*) كلية الطب البيطري، جامعة الزقازيق / مصر.

أ.د. محمد باباعمي*



مالك بن نبي

من سمات التخلف إلى بذور الحضارة

تعرفتُ على مالك بن نبي في يوم من أيام الله ولما أتجاوز التاسعة عشرة من العمر، كنت طالبًا في ثانوية "مفدي زكرياء" أوائل الثمانينيات من القرن المنصرم، وكان لأستاذ اللغة العربية "ابن ساحة" الفضلُ في ذلك. ولعلّي سمعتُ اسم "مالك بن نبي" وتعجبتُ من هذه الصيغة في إحدى دروس اللغة العربية التي كان أستاذي يديرها بنجاح وإبداع منقطع النظير.

التشبُّه بالكرام فلاح

أول كتاب قرأته هو "مذكرات شاهد للقرن" باللغة العربية، مرحلة "الطفل" ثم "الطالب"، ولهذا الاختيار دافع معقول هو أنني -وأنا الدارس في شعبة الرياضيات- وددت الدخول في شعبة أدبية فكرية اجتماعية، ولم يكن المحيط يحبّذ مثل هذا "النزول" من مستوى هو الأعلى، إلى مستوى -في عين الجميع- هو الأدنى، غير أني وجدتُ في مالك بن نبي الأنموذج والمثال، فهو المهندس الذي تحوَّل من "المعادلات الرياضية" و"الرسوم الصناعية" إلى "النظريات الحضارية" و"المعالجات الفكرية". فصادف -بهذا- هوىً في نفسي وأمدَّني بالراحة والطمأنينة، وكنت دومًا أفتخر بهذا التشابه وإن لم يكن عميقًا، إلا أن التشبُّه بالكرام فلاح.

ثم بعد توقفي عن الدراسة في جامعة باب الزوار سنة ١٩٨٨م، والتحاقي بالمعهد العالي لأصول الدين في الجامعة المركزية، شاء الله أن تُفتح نافذة الحرية على كتب مالك بن نبي مع الانفتاح السياسي، وأن تدخل عناوينه إلى السوق الجزائرية باللغة العربية، فاشتريتها من مكتبة "العالم الثالث" بشارع العربي بن مهيدي بأثمان تبدو اليوم بخسة (من ٣٠ إلى ٦٠ دينارًا جزائريًّا للعنوان الواحد).

فالتزمتُ مطالعتها كاملة، ووجدت فيها الملاذ والمأوى لعالم الأفكار الذي غاب كلية عن ساحة المعهد، وحل محله الطرح التراثي الكلامي المذهبي المسطح. فكانت جامعتي هي "مالك بن نبي" لا "المعهد العالي"، إلى جوار بعض

الأسماء المعتبرة مثل: محمد إقبال وأبو الأعلى المودودي ووحيد الدين خان... إضافة إلى أساتذتي -الآخذين بيدي- الدكاترة: محمد ناصر ومحمد الزيني وأحمد موساوي.

وفي بدايات التسعينيات عرض عليَّ ناشر لبناني قائمةَ إصدارات دار الفكر، وهو صاحب دار الملكية بالجزائر، وطلب مني وضع علامة على العناوين التي يترجح رواجها في الجزائر، فلم أفكر طويلاً حتى وضعت العلامة على جميع مؤلفات مالك بن نبي، وما هي إلا أشهر حتى غطى اسم مالك بن نبي أرفف المكتبات في الجزائر التي طالما طاردته وأبعدته وتنكرت له.

وكنت بين الحين والحين أعود إلى ابن نبي لفهم ظاهرة أو لتفسير أزمة أو لمراجعة فكرة... وبخاصة مع تصاعد الفتن في الجزائر، وضياع الأمل في "جزائر عزيزة متمكنة قوية"، وتعدد مستويات الأزمات وتنوعها محليًّا ووطنيًّا ودوليًّا.

غير أن العجيب حقًّا في هذه الأيام وقد عقدت العزم على إعادة مطالعة جميع العناوين التي بين يدي مما ألَّف ابن نبي، العجيب حقًّا أنني اكتشفتُ في أرفف معهد المناهج مذكرات شاهد للقرن باللغة الفرنسية، نشر "سمر للنشر والتوزيع" سنة ٢٠٠٦م، وما إن قارنتها بالنسخة العربية حتى عرفت أن ما تُرجم إلى العربية هو أقل من نصف المذكرات، وهو ينتهي إلى سنة ١٩٣٩م، أما من هذا التاريخ إلى سنة وفاته ١٩٧٣م، فقد أودع في جزأين آخرين بعد "الطفل" و"الطالب"، وهما "الكاتب" و"الدفاتر"، وقد سمى جزءًا من "الكاتب" باسمٍ كنتُ قد عرفته من قبل، ولم يشأ الله أن أقرأه وهو "العفن" (Pourritures).

ومع سفري إلى "قسنطينة" وهي المدينة التي عرفت الكثير من أحداث حياة الرجل، وهي تعرفه ويعرفها جيدًا فهي القريبة من مسقط رأسه "تبسة"، حملتُ معي الكتاب لعلّي أطالعه في الطريق أو قبيل النوم، وكان في حقيبتي -أو بالأحرى في جهاز الكمبيوتر المحمول- مشروع "تفعيل المرجعية الإباضية الميزابية".

بعد اشتغالي في المشروع وكتابة بعض فصوله متأثرًا

حتى يتمكن أي طرف من الالتحاق بالمجموع، يجب عليه أن يتخلى عن فكرة "أنا ولا أحد"، وفكرة "الصواب المطلق معي والخطأ المطلق مع غيري"، وفكرة "بي يصلح الوجود وبغيري يخرب"، ففن الاجتماع قد يكون أحيانًا كسبيًّا، ولكنه في كثير من الأحيان يكون فطريًّا يُنْبئ عن معدن الفرد.

بكتاب "فكرة الأفرو-آسيوية"، تحوّلت مذكرات ابن نبي إلى محور البرنامج اليومي. وقد هالني ما اكتشفت من معاناة الرجل مما لم أكن أعرفه من قبل حتى صرت اليوم متيقنًا أن مالك بن نبي لم يكن يؤلف مقالاته، بل كان يعيشها بصبره كلمة كلمة وينحتها من محنه وإحنه فكرة فكرة. فيصدق -اليوم- أن يقال فيه "الرجل هو الفكر، والفكر هو الرجل".

من معاناة مالك بن نبي

فمالك بن نبي -من خلال مذكراته- قد سُجن وعُذّب وحُوصر وأُفقرت أسرته (أبوه وأخته وكل محيطه) وسُجنت زوجته مرات، وعرف "الهجرة" كما سماها وهي محاولة الهروب إلى الخارج بالأرجل، وعانى الأمرَّين في سبيل نشر أعماله، وفكَّر مرارًا في الانتحار، وكان معوزًا مُنعت عنه كل أسباب التوظيف، وعرف بعض المناصب الشاقة التي تستدعي الجهد العضلي وهو المتعب المريض.

ولكن الذي أفرغ جعبته من الصبر وجعله يدعو الله أن يعجّل الموت له، هو الهجران والحصار الذي فرضه عليه أبناء المستعمرات من العرب والمسلمين بفعل "القابلية للاستعمار"، سواء بالتواطؤ مع المستعمِر أو عن جهل وغفلة أو لأمور أخرى لم يستطع تحديدها.

ولقد عانى الأمرَّين مع الحركات الوطنية بكل أطيافها، وعرف في "الزعامات" كلَّ معاني الخسة والرذيلة، وتيقن أن أغلبهم طلاب سلطة، وجلَّهم أخطبوط يبتز الشعب ويغتال الأمل لمآربه الخاصة. وقلَّ منهم من مات مؤمنًا بمواقفه، منافحًا عن دينه ووطنه. وهؤلاء -عمومًا- كانوا تحت وطأة الأيادي الخفية والظاهرة للاستعمار، بالتنسيق مع القلوب الضعيفة والمنافقة لأبناء المستعمرات.

ويكفي أن ندرك أن الرجل -وهو مَن هو- قد عرف الجوع وشارف على الهلاك مرات، وقد اقتسم مع الطلبة الجامعيين غرفتهم وهو في الخمسينيات من عمره بالقاهرة، وقد أُرغم على ترك عائلته سنوات وهو لا يعرف عنها شيئًا، ويدعو الله أن يكون قد رزقها الموت "لأنه أرحم عليهم من الحياة".

إطلالة على مذكرات ابن نبي

وقد شرع الرجل في تأليف "الظاهرة القرآنية" تحت قصف قنابل الألمان في الحرب العالمية الثانية، وكتب معظم مؤلفاته دون اعتماد المكتبات والمصادر، لأنه حُرم منها عن قصد من قِبَل الداخل والخارج.

وهو الذي كتب بتاريخ ٢٢ مايو ١٩٥٨م: "منذ خمسة أيام وأنا أحس الفراغ تحت قدميَّ، والضباب أمام ناظريَّ، والأسف داخل أحشائي.." إلى أن يقول: "كل مطلع شمس في مثل هذه الفترة العصيبة عليَّ، أستيقظ من النوم لأقول: هل هو يوم آخر؟! لا أعرف أحيانًا ما هي شخصيتي الحقيقية، فأنا نقطة تصارع بين جميع المتناقضات التي يمكنها أن توجد في إنسان على ظهر الأرض".

ويكتب في تاريخ آخر من دفاتره ومذكراته: "مرة تلو أخرى لا أجد السلام لي في هذا العالم، إنها الخيبة والشك في كل شيء... إذا لم تتداركني رحمة الإله فأنا ضائع جسمًا وروحًا، مثل زورق في محيط تلهو به الأعاصير العاتية، متى تعرف طريقي نهايتَها إلى الجهة الأخرى من الحياة؟ يا رب، امنحني بعض الأمتار، بعض السنتيمترات، أقصّر بها طريقي الشقية، فأنا متعب".

تحويل العلم إلى عمل

أنا لست هنا مهتمًّا بعرض هذه المذكرات ولا مولعًا بالغرابة والترف الفكري، ولست بحاجة لأريكم حجم المعلومات، فالكتاب الأصلي كفيل بإعطاء الصورة الحقيقية لما أقول، إنما وددتُ أن أُسقط ما قرأت على واقعنا اليوم، بعد مضي ما يقارب أربعين عامًا على وفاة الرجل.

أردتُ أن أقارن بين ذاتي بكل حماقاتها وضعفها، وهذه الذات التي خرقت حُجب الكون واستقرت في علّيين، صابرة محتسبة رغم كل المعاناة التي لا تتحملها الجبال الشامخة ولا الأكوان الشاهقة.

فالرخاء الذي يحيط حياتنا هو -ولا شك- نعمة من الخالق المنّان. لكن -للأسف- إنه يترك قلمنا باردًا مهزومًا، يذره بعيدًا عن واقع الحياة -كما هي- هو أقرب إلى ترديد الصدى ومضغ الحجر منه إلى تغيير النفوس وإحداث الانقلابات الفكرية في دنيا الناس.

ما العمل وأنا حائر في منعرج فكري لمَّا أجد له الجواب الكافي؟ ما العمل وإشكالية تحويل العلم إلى عمل والفكرةِ إلى فعل، تقضُّ مضجعي وتذيقني العلقم آناء الليل وأطراف النهار؟ ما العمل وفي تقديري أن الأمة الإسلامية لا تزال تدور في دائرة مفرغة من المشاكل والمعيقات والأزمات الذاتية والنفسية والداخلية... تحركها الأيدي الاستعمارية السياسية الخارجية؟

وأعيد السؤال على نفسي آلاف المرات: ما هو خطي الفكري؟ ما هي رسالتي؟ ما هو منهجي؟ وما هي أفعالي؟ وما قيمة علمي؟ وما نسبة فعلي إلى فكري؟

أعيش الفراغ الكوني والأسئلة المحيّرة ولا أجد لها جوابًا وقد تعالت أصوات الادعاء، وكثر اللغط، واستَشْرَت الخطابةُ، وتعلق الناس -إلا من رحم ربي- بالألفاظ والكلمات والأشكال والمظاهر، فأعرضوا عن المحتويات وعن حقائق الأمور والصدق والجهاد.

وتزداد هذه الحال استحكامًا كلما تكالبت السياسة على الأخلاق، وكلما نهشت ذئاب الخيانة أرواح المغفلين، وكلما سادت القردة والزعانف والرعاع.

تزداد كلما صفَّق الجمهور للمسرحية، وتأخر زمن النصر الحقّ، وخاب الأمل في نهاية النفق، وتيقن اللبيب بطول الليل وبشدة البرد على عالمنا الإسلامي الحائر.

غربة المفكرين وآلام التفكير

وقد ظننت أني أعيش هذه الغُربة وحدي، لكنني يوم كتبت "آلام التفكير" -في موقع فيكوس- بدا وكأن العديد من العقلاء يتجرَّعون علقم هذه الفتنة، ولا يملكون الوسائل التي بها يعبرون، ولا اللغة التي بها يكتبون، ولا الفكر الذي به يحللون... فهم أحياء داخل جسم ميت، ومنتبهون بين شعب مرتاح إلى نوم مميت.

فكيف نجمع شتات هؤلاء في صفّ واحد؟ وكيف نصنع من الأطراف المترامية هيكلاً متينًا؟ ومن لها؟ ومتى؟ وبأي منهج وفكر؟

جُرّبت الثورات فلم تفلح، ذلك أنها زرعت الدم والقتل والإبادة، عوضَ الحياة والأمل والعمل.

جُرّبت الكتب والمقالات، غير أنها خاطبت بعض الناس ونبّهت بعض الأفئدة، ولم تلج إلى قرارة النفوس لتغيرها ولا إلى أغوار العقول لتصقلها.

جُرّبت المدارس والمعاهد، فأثمرت رجالاً ليسوا الأسوأ في الميدان، ولكنهم يقينًا لم يكونوا الأحسن والأجدر بصنع



واقـع مختلـف تمامًـا عـن أي مرحلـة تاريخية أخـرى عرفها العالم الإسلامي.

جُرِّبـت الحـركات والجماعـات، فجـرَّدت أتباعهـا مـن الإحساس الحضاري العام، وبدّلتهم بإحساس ذاتي مفرد ينظر إلى العالم من كُوّة مغلقة فيفسّر الكون كله من زاويته الضيقة ويختزل الحقيقة فيما بلغه عن "زعيمه" أو "مرشده"، وهو قابع في الدهاليز وداخل البنايات، بعيدًا عن سعة الكون والحياة.

الفرد يحمل بذرة المجموع

ماذا بقي لنا أن نجرب إذن؟ هل من الحكمة أن نتوقف هنيهة ونفكّـر مليًّـا، ونعيد قراءة الواقـع ببصيرة، ونجتهـد في قراءة الأدلـة والنصـوص بوعـي ودرايـة، ثم نقتـرح الـدواء اللائق والشفاء الرائق؟

أولـم يفعل ذلك بعض العلماء -منهم مالك بن نبي- فلم يفلحوا ولم يغيّروا هذا الواقع التغيير المنشود؟

أقـول -والله أعلـم- الخـرق أوسـع مـن أن تخيطـه إبـرة واحـدة، والجـرح أعقد من أن يشـفيه دواء واحـد، والأرض أظمأ من أن تسـقيها قطرة واحدة، والفؤاد أفرغ من أن يعمره أمل واحد، والفكر أجدب من أن تحييه فكرة واحدة.

ولنجـرّب جمـع الطاقـات جميعهـا علـى صعيـد واحد، لكن شـريطة أن يكون في خلية كل طاقة ما يدفعها للاجتماع والتكتل، تمامًا مثل الفطرة التي تحملها الطيور وهي تحلق في أسراب تُحسـب بالألوف والملايين في نظام متسق ومتناغم، ذلـك أن الفـرد يحمل بذرة المجمـوع، وأن المجموع يتكون من قوة الأفراد.

وحتـى يتمكن أي طرف من الالتحـاق بالمجموع، يجب عليـه أن يتخلـى عـن فكرة "أنـا ولا أحد"، وفكـرة "الصواب المطلـق معي والخطأ المطلق مع غيـري"، وفكرة "بي يصلح الوجـود وبغيـري يخرب"... ففـن الاجتماع قد يكـون أحيانًا كسبيًّا، ولكنه في كثير من الأحيان يكون فطريًّا يُنْبئ عن معدن الفرد مصداقًا لقول المصطفى ﷺ: "الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فَقِهُوا" (متفق عليه).

فلتكـن -أخـي- من المعـدن الصالـح الذي يـزرع بذور الحضـارة بعـد أن يسـتأصل سـمات التخلـف، غيـر مكترث ولا آبـهٍ بمـا يُقـال عنـه أو بمـا يقال فيـه. فـالله ﷻ وحده هو الكفيل أن يبارك خطواته، وهو الذي لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وهو القائل: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(التوبة:١٠٥). ■

(*) مدير معهد المناهج، الجزائر العاصمة / الجزائر.

شعر

أ.د. حسن الأمراني*

الخاتمة

يا سيّدي احمل عنّيَ الأوزار قد ... ثقُلت عليّ وسدّت الطرْقَ المُدَى

تلك المُدى مسنونةٌ مما جنتْ ... كفّي، وآن لشهوتي أن تُغمدا

فإذا عفوتَ فأنت أهل للتقى ... وإذا وهبتَ فأنت أهل للجَدا

وأنا الفقير لبحر جودك أرتجي ... يا ذا الجلال وقد أتيتك مفردا

أقررتُ يا ربي بما اكتسبت يدي ... لكنّ عفْوك لم يزل لي مُسعدا

إن صاحت النفس السجينة: أقْصِرَنْ ... أو قال قلبي: يا اذْرِفَا لا تجمدا

ولقد علمتُ بأن نفسي أسرفتْ ... وبأنني في الناس أفقرُهم يدا

ويظنُّ بِي الحسنى عبادُك، لم يروا ... ذنبي، فستْرُكَ كان لي نعم الردا

ولكم سترتَ من العيوب تكرّمًا ... أتُراك بين الناس تفضحني غدا؟!

حاشاك تفضَحُني وسِترك مسبَلٌ ... إن قام هذا الناس عندك شُهّدا

سبحانك اللهمَّ لا أحصي الذي ... أوليت من مننٍ وكنتُ مجرّدا

فخلقتني ورزقتني وكسوتني ... وبعثت أحمدَ لي رسولا مرشدا

أتمم عليّ الستر والوعد الذي ... أعطيتني، أكرم بوعدك موردا

لولاك لم أنعمْ، ولم أعلمْ، ولم ... أغنمْ من الأخلاق بُردا مُجسدا

يا ربّ صل على نبيك ما بدا ... نجمٌ تغشّى الحالكات وبدّدا

فهو الذي انجاب الظلام بنوره ... فضلا من الرّحمنِ، فانتشر الهدى

ثم الصلاة على الأئمّة كلهم ... أهل الملاحة والسماحة والندى

واغفِرْ لعَبْدِكَ كلّ ذنبٍ جاءه ... عفْوًا وما قد جاءه متعمّدا

فعُبَيْدُك الحسَنيُّ طال عذابه ... الذنب قيّدَهُ، وساء مقيّدَا

وارحمْ بفضلك سابقي أكرمْ به ... من شاعر صاغ الكلامَ زبَرجدا

يحيى بن مقبولِ الكريمَ الأهدلَ ابْ ... ـسطْ يا رحيم من القبول له الردا

واشمل بعفوك عبدك الضحويّ مَن ... سلك السبيلَ وكان عندي مرشدا

وارحمْ جميع المسلمين تفضّلا ... يا من بآلاء الجميل تفرّدا

(*) رئيس تحرير مجلة "المشكاة" / المغرب.

تاريخ وحضارة

طلحة أوغرلوإيل*

ذكريات رحالة فرنسي عن إسطنبول العثمانية

لقد كُتِب الكثير والكثير عن مدينة إسطنبول والعثمانيين، لأن هذه المدينة -إلى جانب كونها أبهى وأعظم مدينة عرفتها الإنسانية في قرونها الوسطى- كانت تحتل مركزًا قياديًّا في العالم. والعثمانيون الذين جرت على أيديهم تلك الروائع والآثار التي ازدانت بها المدينة ناشرة السكينة والطمأنينة والهدوء، كانوا -ولا يزالون- يشكلون مادة دسمة في مذكرات الرحالة وكتابات المؤرخين.

ومن بين هؤلاء نتوقف عند الرحالةِ الأديب الفرنسي الشهير "جيرار دي نرفال" (Gérard de Nerval) الذي سجَّل بموضوعية في مذكراته، مشاهداته عن الإنسان العثماني ومدينة إسطنبول، فمكننا من أن نرى حقيقة التاريخ في شكلها الواضح البرّاق، عارية من الافتراءات التي تشوّهها.

وعلى الرغم من أن مؤلفات هذا الأديب (الذي عاش في القرن التاسع عشر) في الشعر والرواية والمسرح، بقيت تُقرأ طيلة ١٣٥ عامًا، وأن البعض في عصره اعتبره أديبًا تجاوز حد العبقرية والجنون.. فإنه -على الرغم من ذلك- اشتهر بين الناس كواحد من أكثر الرحالة سياحةً في عصره. وهذا الكاتب الذي أَسَرَتْه مشاهدُ الشرق وحياتُه، تردَّد كثيرًا على إسطنبول، واستطاع في مذكراته أن يقف على تفاصيلها الدقيقة. وملاحظاته التي سجلها في رحلاته تقدم لنا اليوم

معلومات موثوقة عن حياة العثمانيين وإسطنبول في القرن التاسع عشر. وأول ملمح استرعى انتباه الكاتب -بمجرد أن وطئت قدماه الدولة العثمانية- فأدهشه، تمثل في الأخوة والتعايش في مجتمع ينتمي أفراده إلى شعوب وأديان وثقافات مختلفة. وتحدث في مذكراته عن هذا الملمح بهذه العبارات:

"مدينة عجيبة إسطنبول، يعيش فيها جنبًا إلى جنب شعوبٌ أربعةٌ في غير كرهٍ بينهم ولا أحقاد، فالتسامح الذي يبديه هؤلاء من الأتراك والأرمن واليهود والروم فيما بينهم، لا نستطيع أن نراه عندنا بين من ينتمون إلى ولايات وأحزاب مختلفة".

وكاتبنا الذي لا يهمل المقارنة بين الحياة العثمانية والحياة الأوروبية من حينٍ إلى آخر، يركز في مذكراته أيضًا على التسامح العميق الذي تبديه الدولة للشعوب التي كانت تعيش تحت كنفها وسلطتها. وهذا مشهدٌ كتبه عن مقاهي إسطنبول:

"عند اجتيازنا باب سور "غَلَطة" تُقابلنا المقاهي التي تشبه المقاهي عندنا، وتنتشر على طاولاتها الصحف الأرمنية والرومية فضلاً عن صحف اليونانيين القادمين من مورة".

إن الأجانب القادمين إلى العاصمة وهم يحملون الأفكار الخاطئة عن الدولة العثمانية ومنها ما يتعلق بنظرتها "السلبية" للفن والآثار الفنية، سرعان ما كانوا يدركون خطأهم بمجرد رؤيتهم للنصب التذكارية في الساحات الكبيرة ويرون بصمات الفنانين وتوقيعاتهم بأقلام القصب في فروع الفن المختلفة.

مدينة لا تعرف سوى التسامح

وكانت زيارة السلطان العثماني تأتي على رأس رغبات كل زائر قادم إلى البلاد العثمانية من غير المسلمين. ولتحقيق هذه الرغبة كانوا يحضرون مراسمَ تحيةِ يوم الجمعة، أو ينضمون إلى فعاليات سباق الخيول في ميدان الخيول... وكاتبنا يجمع كل طاقته في التركيز والانتباه قبل (تحية الجمعة) ينتظر السلطان العثماني، وما من شك في أنه كان ينتظره في هيبة عظيمة رسَمها له في مخيلته، لكنه سيجده في الواقع في صورة لم يكن يتخيلها:

"شاهدتُ مرور السلطان في عربة متواضعة تتقدم في الطريق الهابط إلى الميناء، كان عليه معطفٌ مُزَرَّر حتى العُنق، والأتراك يلبسون هذا النوع من المعاطف منذ عهد التنظيمات، والأمر الوحيد الذي يميز السلطان في لباسه عن بقية الناس هو النيشان الإمبراطوري المرصَّع بالألماس على طربوشه".

بعد أداء مراسم "التحية" يتقدم السلطان نحو منطقة "بيرا" (Pera) أو "بَيْأُوغْلُو" (Beyoğlu) لزيارة تكية هناك، وأمام التكية تقع هذه الحادثة التي تستولي على الكاتب دهشةً وعجبًا، لأنه لم يكن يتوقع هذا الحد من التسامح عند الحكام العثمانيين:

"كان السلطان قد بلغ شارع "بيرا" فدخل تكية أحمد باشا، وفيها أيضًا قبر "الكونت بونفال" (Kont Bonneval)، وبينما كنّا ننتظره أمام باب التكية، إذ ظهر موكب جنازةٍ يتقدمها رهبان الروم، كان الموكب يتقدم نحو خارج المدينة، فطلب حرَس السلطان من الرهبان تغيير طريقهم، لأن السلطان على وشك الخروج من التكية، ومن غير المناسب أن يلتقي بموكب الجنازة. وبعد تردّد قصير تكلم رئيس الرهبان -وهو في لباسه البيزنطي- مع رئيس الحرَس، ثم تابع الموكب دون

جيرار دي نرفال (Gérard de Nerval) ١٨٠٨-١٨٥٥

تغيير طريقه. فقد اقتنع رئيس الحرَس بأنه لو صادف الموكب خروج السلطان فإن السلطان كان سينتظر مرور الموكب دون مشكلة. ففي إسطنبول تسامح كبير شامل لجميع الأديان، وهذه الحادثة أسجلها مثالا لذلك".

موضوع آخر يَدهش له كاتبنا، هو هذا التضخيم المبالَغ فيه عند الكتّاب الأوربيين للحياة الأُسَرية للسلطان ومسألةِ الحريم فيها، فنراه قد سمع من محيط السلطان وشاهَدَ بنفسه ما يدخض ويبطل تلك الادعاءات:

"أخبرني صديقي أيضًا عن عدد النساء في القصر، وهو مختلف تمامًا عما هو شائع عندنا في أوروبا. فقد كان يعيش في حرم السلطان (بيت الحريم) ثلاث وثلاثون امرأة، ثلاث مِنهن فقط مَحْظيّاته والأخريات خادماتُ الغرف. فالأوربيون يفهمون هذه العبارة -خادمات الغرف- بشكلٍ خاطئ".

الرفق بالحيوان ريادةٌ عثمانية

وتثور المشاعر لدى الأوروبي حين يتعرف على هذا المجتمع الذي تسود فيه أخلاق الأخوة والتعاون، لاسيما عندما يرى ما لم يعرفه في بلاده من أخلاق الحرص على تقديم المساعدة التي تتجاوز الإنسان إلى عالم الحيوان. فما الذي شعر به كاتبنا بعد مشاهداته في هذا الشأن:

"بعد خروجي من الحُرْش الذي يحيط بقِشْلة (ثكنة) المدفعية التي تغطي ساحة واسعة، وجدت نفسي في طريق "بُيُكْ دَرَة" (النهر الكبير) وكان هناك مرج أخضر يمتد حتى أطراف القشلة، وعلى المرج مشهد لا يختلف كثيرًا عما شاهدته من قبل؛ إذ كان في المرج بضع مئات من الكلاب تنتظر وقد بدأ صبرها ينفد، وبينما هم كذلك إذ ظهر العساكر يحملون قدورًا كبيرة معلَّقة على أكتافهم بالعِصيّ. فبدأت الكلاب تتقافز في الهواء عندما رأتهم وكأنها تكاد تطلق صيحات الفرح، وما أنْ وُضعت القدور على الأرض حتى اندفعتْ مسرعة نحوها. وكان العساكر يحاولون تفريقها إلى مجموعات بالعِصيّ التي يحملونها. قال لي إيطالي كان هناك: يُطبخ هنا طعام خاص بالكلاب! إن هذه الحيوانات لم تكن سيئة الحظ أبدًا. وفي إسطنبول أقيمت الأحواض قرب المساجد وصنابير المياه لتنتفع منها الحيوانات، إضافة إلى الجمعيات التي تهتم بحمايتها. وصلنا إلى إحدى المقاهي، المثلجات وشراب الليمون و(الموكا)... كل شيء



يوحي بالنمط الفرنسي وكأنه بقعة من أوربا. الشيء المحلي الوحيد المختلف هنا والذي لا يمكن أن يغيب أبدًا عن عين المُشاهِد، هو العديد من اللقالق التي تتجول بين الطاولات، فما أن تَجلس على الطاولة وتَطلب قهوتك حتى تقترب اللقالق وتقف قربك وكأنها إشارات استفهام، تستطيع برقابها الطويلة أن ترفع رؤوسها فوق الطاولة وتتناول قطع السكر، غير أنها قلما تفعل، لأنها تنتظر العطاء منكم. وهكذا، تتنقل من طاولة إلى أخرى تجمع البسكويت والسكاكر.

عندما دخلنا باحة التكية شاهدنا قطيعًا من الكلاب، كان الخدم يقدمون لها الطعام. ومنذ القدم كان الناس يخصصون التبرعات الكبيرة لرعاية الكلاب. كانت جدران التكية التي تظللها أشجار الدُّلب والأكاسيا مليئة بالأقفاص المصنوعة من الأخشاب الملونة، صنعت خصيصًا لتأتي إليها العصافير وتبني فيها أعشاشها. وكانت العصافير تتبنّى هذه المساكن المجهَّزة وتمتلكها وتعيش فيها آمنة من غير خوف ولا قلق من جوع".

آثار إسطنبول تلغي الأحكام المسبقة

وإذا كانت البيوت ذات النوافذ البارزة -والتي تحمل بتفاصيلها التزيينية قيمة فنية عالية وتعكس الحالة الروحية للعثمانيين ورؤيتهم الجمالية- تشد الأنظار إليها، فإن موجة التخلي عن هذه الثقافة والتطلع إلى التشبه بأوربا -التي ظهرت مؤخرًا على المسرح الدولي- لقيت رد فعلِ الغربيين قبل غيرهم، وأثارت انتباه كاتبنا الذي يقول:

"ألزمت "التنظيمات" العثمانيين ارتداء الطربوش وحبستهم في المعطف الذي تبلغ أزرارُه العنق، وألغت الزينة من البيوت. فبطلت السقوف المذهبة التي تشبه خلايا النحل،



وأعمال الحفر في "الأثاث الخشبي"، والصناديق المزخرفة المصنوعة من أخشاب أشجار الأرز، وحل محلها الجدران الملساء المطلية ذات الستائر، وبعض الصور المعلقة في لوحات، والقليل من المزهريات وهذا كل شيء".

وتعرضت رؤية الدولة العثمانية للفنون والآثار الفنية لافتراءات ظهرت في بعض الأوساط الثقافية الغربية، في سبيل إضعاف هذه الدولة التي حكمت لأعوام طويلة مجتمعات كثيرة في ظل التسامح والتعايش والسلام، غير أن الأجانب القادمين إلى العاصمة وهم يحملون الأفكار الخاطئة عن الدولة العثمانية ومنها ما يتعلق بنظرتها "السلبية" للفن والآثار الفنية، سرعان ما كانوا يدركون خطأهم بمجرد رؤيتهم للنصب التذكارية بكل هيبتها في الساحات الكبيرة، ويرون بصمات الفنانين وتوقيعاتهم بأقلام القصب في فروع الفن المختلفة.

وتأتي عناية العثمانيين بالآثار التي تعود إلى الدول والثقافات السابقة وحمايتها، لتشكل جانبًا آخر من الجوانب التي تأخذ بألباب هؤلاء الغربيين وتصحح ما لديهم من انطباعات مسبقة. وها هو كاتبنا يقدم رؤيته في ذلك في صباح العيد في ميدان الخيول:

الدين والبناء الأخلاقي

"هزت المدينةَ أصواتُ المدافع التي انطلقت من السفن والحصون عند شروق الشمس صباح العيد، وانطلقت أصوات الأذان من المآذن الألْفِ تملأ الآفاق، وكانت مراسم العيد هذه المرة في ميدان الخيول، حيث كان هذا الميدان أيضًا يشتهر بذكريات الإمبراطورية البيزنطية، وكان فيه الأوبرا الأثرية التي تعود لها، والمجسَّمات القائمة على القواعد الحجرية البيضاء التي أحضرت من مصر، وهذه الهياكل -التي لازالت قائمة من عهد البيزنطيين- خير إثبات على عدم صحة ما نظنه نحن الأوربيين عن العثمانيين بأنهم أعداء التماثيل".

ومعتقدات المسلمين الدينية تشكل ملمحًا آخر في الانطباعات والمعلومات المغلوطة عند الغربيين، والكاتب -مثل جميع الغربيين الذين تلقوا سماعًا افتراءات ومعلومات خاطئة عن المسلمين وعن أنماط حياتهم- يضطر إلى عقد مقارنة بين الحياة في مجتمعه والحياة في المجتمع العثماني فيدلي بهذه الملاحظات:

"أرى أنه من الخطأ بمكان، اتهام المسلمين بغواية النساء، واتهامهم بالسخافة في بعض عاداتهم دون أن ندرك الاختلاف الكبير في المعتقدات والعادات بيننا وبينهم، فليس من الصحيح أن نصدر أحكامنا في حقهم انطلاقًا من أخلاقنا. فإذا أخذنا في الحسبان علاقة المسلم بزوجته وغيرته في موضوع "العِرْض"، فإننا عندئذ ندرك الافتراءات السفيهة التي اختلقها كتَّابنا في القرن الثامن عشر".

ضمت الدولة العثمانية عددًا كبيرًا من الرعايا المنتسبين إلى ديانات مختلفة لم تشهد مثله دولة أخرى. وقد وقف كاتبنا على مشهدٍ لم يكن يتخيله أبدًا، فما أن خطت قدماه نحو الشارع من مكان إقامته في "بيرا" صباح ذلك العيد حتى وقعت عيناه على هذا المشهد:

"يشارك الأوربيون المقيمون في "بيرا" في طقوس العيد كما جرت العادة فيحتفلون مع المسلمين".

وما شهده عقب صلاة العيد في ميدان الخيول توقف أمامه دهشة وعجبًا:

"توجه الجميع إلى الطعام والشراب بعد ذبح الأضاحي. أرغفة الخبز (خبز التنور)، والزبدة المحلاة بالسكر، والمقالي، والكباب المفضل عند الجميع في كميات وافرة، تُقدَّم للناس بلا مقابل، وقد سُدّدت أثمانها من قبل الأغنياء. يدخل المرء إلى أي بيت يريد، ويجلس على المائدة فيُستقبَل بحفاوة. فالبيوت كلها مفتوحة الأبواب على مصاريعها، يحاول الجميع تقديم ما يستطيعون من الضيافة، ويحاولون إضفاء السرور على الضيوف مهما كانت أديانهم أو أعراقهم أو مقاماتهم الاجتماعية، لا فرق في ذلك بين غني أو فقير".

فهل كان يمكن للقادمين إلى الدولة العثمانية الذين يقفون في حيرة وإعجاب أمام هذه السلوكيات الراقية، أن يظلوا



بمنأى عن التأثر بهذا الدين الذي كان سببًا لمثل هذا البناء الأخلاقي العظيم؟!

لم يغب أيضًا عن عيون الكاتب وانتباهه، أولئك الدراويش المستمسكين بالدين الإسلامي بكل نقائه وصفائه، فكيف تناولت مذكراته هذا الموضوع:

"تأثرتُ كثيرًا بعبادة الدراويش في إسطنبول، فذكر الله عندهم يمكن أن يعبَّر عنه بكل لغة ولسان، وهم بيراعهم -التي يعزفون بها- لا يجبرون أحدًا أن يدور مثلهم، لكنه في نظرهم هو الأسلوب الأرقّ والأرقى في شكر الله وفي التعبير عن عظمته".

لقد جاءت المذكرات التي حوت مشاهدات نقلها ببراعة قلم الأديب الفرنسي "جيرار دي نرفال"، أمينة مجرَّدة من الخضوع لأي تأثير، سوى ما تراه عيناه وتقع تحت حواسه، فكانت من أفضل المذكرات التي تحمل الكثير من الحقائق عن مدينة إسطنبول.

فهذا الكاتب الذي عرفه عصره ككاتب يعبّد الطريق لمن بعده في هذا المجال، ويقدم بأسلوبه النقي السيّال نموذجًا لهم ويمتلك القدرة على تمييز الحقائق ورؤيتها، نأمل أن تشكل مذكراته أفقًا جديدًا لمن لا يعرف شيئًا عن ماضيه ومع ذلك لا يتردد في انتقاده، وأن تدفعه إلى البحث المفصل عن هذا الماضي. ولنختم مقالتنا هذه بعبارات من هذه المذكرات التي تتحدث عن نفسها:

"لم أقم في هذه المذكرات، بالتعريف بإسطنبول، فقد كُتب الكثير عن قصورها ومساجدها وحماماتها وسواحلها، بل أردتُ فقط أن أعبر عما رأيته في شوارعها وساحاتها، فهذه المدينة تشكل منذ القدم الدمغة المُطَلْسَمة المقدسة التي توحد بين آسية وأوروبا". ■

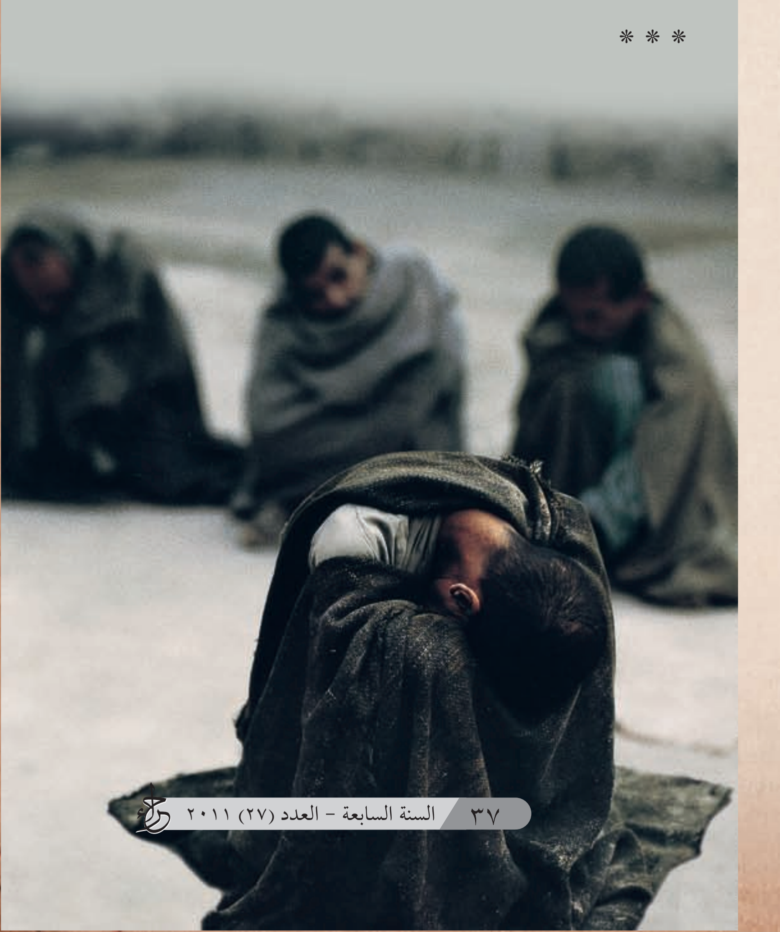
[*] كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: مصطفى حمزة.



يا فجيعة الإنسانية بأبنائها

انظروا وأَوِّلوا،
واشهدوا وتفلْسفوا...
لا تأْويلاتكم تجدي،
ولا تفلْسفكم يغني...
منبوذون متصعلكون،
لا يثيرون اهتمامًا،
ولا قلبًا رحيمًا يجدون...
يا إنسانية اخْجلي،
وفلذات كبدك لا تهملي.

* * *



د. أحمد عبد الحفيظ*

بنورك أسعى في الظلمات

أماه! هل تسمعين طرقاتي الخافتة على باب قلبك؟ أتسمعين دقات قلبي الصغير؟ أنا بعدُ صغير لم يتجاوز طولي السنتيمتر الواحد، لكن لي قلبًا دقيقًا ينبض من تدفق دمك الغالي إليه. الطبيب يراني داخلك وينفذ بجهاز موجاته الصوتية إلى داخل غرفتي الخاصة في بيتي الدافئ؛ رحمك الآمن الأمين عليَّ. إنه يرى قلبي -وأنا في أسبوعي الخامس- ويشير إليك لتشاركيه النظر إليه وهو ينبض في سرعة وانتظام، لكن أعلم أنك أحسستِ بي قبل أن تراني عيناكِ على شاشة هذا الجهاز، لأن ربي أودع في أمومتك المخلوقة بلطفه جزءًا من سره، فكما أحب خلْقَه قبل أن يبرأ نسماتهم، أودع في قلبك الحب

لي وأنا بذرة في داخلك لم ترني عيناك بعد، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾(يوسف:١٠٠).

دقات قلب الجنين

قلبي صغير جدًّا، لكنه قوي منتظم، بل إنه يفوق في سرعته وعدد ضرباته قلوب البالغين. نعم إن قلبي يدق بمعدل أكثر من ١٤٠ دقة في الدقيقة في المتوسط، بينما قلوب الكبار تنبض في معتاد أحوالهم بنصف هذا المعدل فقط، وهذا المعدل السريع يمكّنني من الإفادة من كل قطرة دم وذرة غذاء تبعث إليَّ في دمائك يا أماه، لأن كل تنفسي ودورة دمي وغذائي تأتيني جميعها من هذا السبيل.

أعلم يا أماه أنك لا ترين فيَّ ما يراه البعض أنانية وأثرة، إذ إن جهاز نقل الأكسجين الخاص بي (الهيموجلوبين الجنيني) شديد الإمساك بالأكسجين والاجتذاب له، على حين أن حامل الأكسجين لديك (هيموجلوبين الأم) شديد السخاء به، فبقدر تلهّفي على هذا الأكسجين وسحبي له يكون سخاء الهيموجلوبين الأمومي به وبذله لي.

حركة الجنين

بعد نبض قلبي بأيام قلائل يبدأ جسدي بحركاته الأولى، وها أنا ذا أحرك جسدي كله وأضم وأبسط جذعي، ثم أحرك أطرافي في حركاتها الأولى في حركة إجمالية مفردة أو كحركات متتابعة بينها ثوان قليلة. ورغم عمري الصغير فإنني أعرف حدود حركاتي وقفزاتي فلا أرتطم بجدران غرفتي الصغيرة الجميلة المكيفة، ولا أحدث بها عبثًا أو اضطرابًا حتى لا يصيبكِ أي مكروه وإن كنتُ بعدُ نسمة في داخلك.

ها هي الأيام تمضي وأنا في سكني الصغير، فيزداد نشاطي وتتصاعد حركاتي قوة وعددًا متراوحة بين الدقة والنشاط في الأسبوع الثاني عشر، لكنك حتى الآن لا تحسين بهذه الحركات وحتى أتجاوز شهري الرابع. وأحمد الله أن جعلني معك لطيفًا رقيقًا في أشهر الحمل الأولى، حيث لا أزيد على ما فيها من متاعب الغثيان وقيء الحمل وأحاول ألا أزعجك بحركاتي وتنقلاتي وتمريناتي حتى تنهضي وتَسلمي من تلك المتاعب. وبعدئذ أتجاوز شهري الرابع فتشعرين بتحركاتي وبدبيب حياتي داخل كيانك، فيكون بيننا حديث بلا كلام، وحوار حب بلا جدل، وتواصل لا يسكن في نوم ولا ينقطع بليل أو نهار.

كم هي عظيمة قدرتك يا رب! جعلت لي في ظلماتي الثلاث ذاكرة يمكن لدقتها وكفاءتها أن تصمد لحادث الولادة الجلل فأعبر برزخي الأول من الرحم إلى عالم الدنيا وذاكرتي تحفظ لي ما شاركت فيه أمي من قبل أن أولد.

يا الله! يا لها من قفزة مبكرة مفاجئة، بداية من أسبوعي التاسع. إنها "الحازوقة"؛ ينقبض حجابي الحاجز، ويتحرك صدري وبطني وتتكرر الحازوقة، لكنني مهما اندفعت فلا أتجاوز حدودي ولا أرتطم بجدران غرفتي رغم ما يحوطني من الظلمات.

ها هو فمي يتحرك؛ أحرك فكي أفتحه وأغلقه، وأتشدق به وأحرك لساني مع حلول أسبوعي الحادي عشر. يتعجب الطبيب عندما يراني كذلك على شاشة الجهاز ولا يعرف علة فعلي هذا، أتراه يظنها عبثًا ولهوًا؟ أتراه يتصورها تمرينًا مبدئيًّا على الارتشاف والابتلاع اللذين يتصاعدان شيئًا فشيئًا حتى يشكلا جزءًا من آلية ضبط كمية السائل الرهلي ذاك البحر المحيط من حولي؟ إن تشدقي وتحرك لساني وسائر حركاتي وسكناتي -ثم محياي ومماتي- تسبيح لرب العالمين. ها أنذا أحرك أصابعي يا أماه، فيراني الطبيب على شاشة جهاز الموجات فوق الصوتية وأنا أضع إبهامي في فمي بدءًا من الأسبوع الثاني عشر، ولعل متابعته لي بانتظام تمكّنه من أن يعرف أيَّ الإبهامين أُكْثِر من تحريكهما في هذا الوضع، وبالتالي يتوقع ما إذا كنت أيسر أم أعسر من قبل أن ترى عيناي النور.

يراني الطبيب "متثائبًا" أحيانًا مع تقدم عمري بعد الأسبوع السادس والعشرين، لكن ذاك ليس "كسلاً"، بل هي حركات فاعلة لزيادة ارتجاع الدم الوريدي إلى القلب، ومن ثَم زيادة نسبة الأكسجين خاصة حال ازدياد احتياجي إليه كبعض حالات ضعف الدم أو "الأنيميا".

يومًا فيومًا يشتد ساعدي أكثر فأكثر، وتقوى بنيتي ويخلقني ربي ﴿خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾(الزمر:٦)، فلا يحزنك يا أماه أن حملت بي ﴿وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾(لقمان:١٤)، فما وهنك إلا قوة لي تندفع بلطف الله ثم بمحبتك في كياني



وتكوينـي، فتتصاعد حياتي وتنشـط حركاتـي حتى تصل إلى نحو ثلاثين حركة في السـاعة في آخر شهوري، وحتى تكون رسـالة ألفة وتواصـل بيني وبينك، وتكون دلالـة متابعة منك لصحتـي وعافيتـي قبل أن تراني عيناك، يمتلـئ قلبك طمأنينة وحبورًا حين تحسـين حركاتي وقفزاتـي، وربما ينتابك القلق إذا مـا تناقـص معـدل تلك الحـركات، فتفزعين إلـى الطبيب ليبيـن لك ما إذا كان سـكوني هو فترة راحتـي الطبيعية أم هو علامة ضعف أو وهن أو خطر أو مرض.

لقـد تحركـت كثيرًا وحـان موعد نومـي. نعم، إننـي أنام وأصحـو وقـد جعـل الله لي "ليـلاً ونهـارًا" صغيريـن دقيقين كصغـري ووقتي، إذ يتناوبان عليَّ في دورة "صحو ونوم" عبر السـاعة، كما يتناوب عليكم الليل والنهار في أربع وعشـرين سـاعة. إن ربـي الوهـاب لـم يحرمني من سـنة كونيـة كبرى حتـى في عمـري الصغير هذا، فأقرأني بلطفـه في كتاب كونه وجعلني بذلك أول من امتثل لوصيته الأولى لنبيه ﷺ ﴿اقْرَأْ﴾. شـيئًا فشـيئًا يصبح نومي أكثر عمقًا وانتظامًا مع اقتراب موعد خروجـي للدنيا، حتـى يصبح قبيل ولادتي متطابقًا مع برنامج الصحو والنوم عند الوليد حديث الولادة.

حيوية الجنين وشخصيته

إن حيويتي وشـخصيتي لا تتبلـوران فقط فيما يصدر عني من حركات، بل إن لي أحاسيسي وتفاعلاتي؛ فتبدأ حاسة اللمس عندي من أسـبوعي الثامن، إذ أتلمس وجهي بيدي، ثم أنتقل بعدهـا تدريجيًّـا لباقي أعضاء جسـمي، ومع أسـبوعي الرابع عشـر تتشكل المستقبِلات العصبية للتذوق بفمي فأبدأ بتذوق السائل الرهلي، وأتسارع أو أتباطأ في ابتلاعه وإرجاعه حفاظًا علـى دورة المـاء حولي على أنني لا أفعـل ذلك كآلة مجردة من الحس، بل إنني حقًّا "ذواقة" أتعرف حتى على النكهة التي تشـمل التذوق والشم، حتى إنني عقب ولادتي أميل للتعرف على نوعية الأطعمة التي سبق أن أكلتِها -يا أمي- إبّان حملك بـي، وأفرزتها لي في السـائل الرهلي المحيط بي، فأميل إليها وأتعرف عليها وأفضل بعضها بعد مولدي.

حاسة الشم عند الجنين

أما حاسـة الشـم عندي، فتبدأ ما بين الأسـبوع الحادي عشـر والأسـبوع الخامـس عشـر. إن لي قدرة رائعة فـي هذا الأمر، إذ لا يلزمنـي -كالكبـار- انتشـار الروائح فـي "هواء" جواري لأشـمّها ثم أميّزها، وإنما يكفيني "الانتشار الكيميائي" للمواد ورائحتها في السائل الرهلي، حتى إنه يمكن تمييز ١٢٠ مركبًا ذي رائحة محددة في هذا السائل.

حاسة السمع عند الجنين

إن لي سمعًا دقيقًا؛ تبدأ حاسة السمع عندي أبكر مما تظنون. إنني أسـمع بدءًا من أسبوعي السادس عشر، رغم أن التكوين النهائي لأذني يتم في الشـهر السـادس، وهذا عجيب حقًّا؛ إذ إن سمعي يبدأ من تأثر أجزاء جسدي الأخرى كالجلد واللحم والعظام بمؤثرات الذبذبة والاهتزاز محدثة "استقبالات سمعية أولية" تكون بداية لحاسـة السـمع المتكاملة في وقت لاحق.

إننـي موجود في بيئة تنمّي فيّ حاسـة السـمع حقًّا. لسـتة أشـهر مضت وأنا "أتحسـس" دقات قلبك يا أماه، وتحوطني أصـوات أحشـائك. كل ذلك ليس في أذنـيّ ضجيجًا كما قد يظـن البعض، وإنما هو تدريب رباني لأذنيَّ لأسـمع (وأرى) بهما قبل أن ترى النور عيناي، بل إنني أمهر كثيرًا مما تظنون.

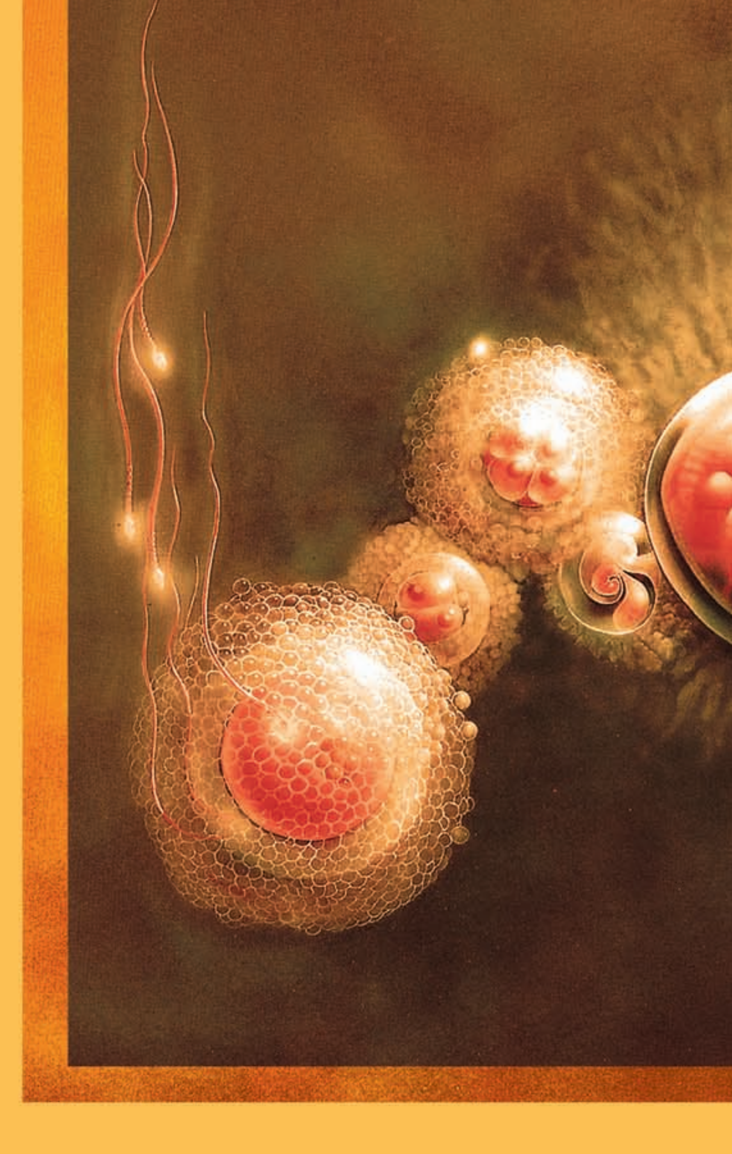
حاسة الجلد عند الجنين

عفـوًا أيها الطبيب... أعلم أن مقصدك خير، وأنك ما أدخلت تلـك الإبـرة إلـى البحـر المحيط بي فـي سـكني الصغير إلا للخيـر، قاصـدًا التشـخيص والعـلاج بسـحب عينة مـن هذا السـائل، لكنني أرجوك الانتباه فإننـي أحس وأتألم إذا حدث أن حـادت إبرتـك عـن طريقهـا وصدمتني، وأعبّـر عن ألمي بالانتفـاض والابتعاد كما ترى على الشاشـة، وبزيادة إفرازي لهرمـون "البيتا إندروفين"؛ المسـؤول عن ردود فعل الجسـد عند التعرض للتهديد والإيذاء.

مَلَكات الاعتياد والتذكر والتعلم عند الجنين

إن لـي أيضًا ملكات "الاعتيـاد" و"التذكر" و"التعلم"، وقدرتي على الألفة والاعتياد تتمثل في الهدوء التدريجي في تفاعلاتي لنفس المؤثر الصوتي أو الجسـمي عنـد تكراره بنفس الهيئة. وهـذه "الألفـة والاعتيـاد" تمثل إحـدى وسـائلي الأولى في التعلـم وتلقي الخبـرات، كما تحفز قدرتي علـى التكيف مع البيئـة ذات المؤثـرات المختلفـة التـي أسـكنها، أمـا ذاكرتي فهـي قد تدهشـكم حقًّا. إن ردود فعلـي الحركية وتغير معدل ضربات قلبي عند مشاركتي لأمي في استماع لموسيقى برنامج معيـن في موعد بذاته، تتكرر بنفس النمط عند سـماعي ذات البرنامـج بعد ولادتي. كم هي عظيمة قدرتك يا رب! جعلت لي في ظلماتي الثلاث ذاكرة يمكن لدقتها وكفاءتها أن تصمد لحـادث الـولادة الجلل فأعبـر برزخي الأول مـن الرحم إلى عالم الدنيا وذاكرتي تحفظ لي ما شاركت فيه أمي من قبل أن أولد. حقًّا بنورك أسعى في الظلمات.

أماه، أعلم أنك أحرص عليَّ من نفسك التي بين جنبيك، وأنـك لن ترضي أبدًا بتناول أي شـيء قد يصل إليَّ فيؤذيني، أو يشـكّل خطـرًا علـيَّ. إن "الكحـول" ذو تأثير مشـوّه مدمّر على أعضائي وأنسجتي جميعًا، وإن تناولك إياه -بأية كمية- يدفعني قسـرًا للمشـاركة فيه والتأثر به و"إدمانه"، حتى قبل أن تعـرف فطرتي المعنـى القبيح لهذه الكلمـات، لأنه يعمل في الحلقـات والتفاعلات الكيميائية لجهـازي العصبي، وأنا بعدُ داخـل كيانـك يا أمي، وأنا على يقين أنك لن تفسـدي فطرتي الطاهرة قبل أن ترى عيناي النور. ■



فإن لي قدرة على الاسـتجابة السـمعية للمؤثرات ذات التردد المنخفـض، ممـا يؤهلني للتدريب على سـماع الكلام، حتى إننـي أسـتطيع تمييز صوت أمي من بين الأصـوات، بل وأميّز كلامهـا فيعتدل معـدل ضربات قلبي عند سـماعي لكلماتها. إننـي بمَلَكـة الاسـتماع المتقدمة لـديَّ هذه، أتهيـأ في غرفتي المظلمة قبل مولدي لتعلّم الكلام بعد خروجي لعالم النور.

حاسة البصر عند الجنين

تطرف عيناي بمعدل نحو سـت مرات في السـاعة، ويستطيع الطبيـب أن يلاحـظ هـذه الحركات علـى شاشـة الجهاز في عمر متأخر بعد الأسـبوع الثاني والثلاثين، وتتحرك عيناي في محجريهما حركات بطيئة من الأسبوع السادس عشر، وأخرى سريعة من الأسبوع الثالث والعشرين، ثم تبدأ في الهدوء بعد الأسبوع السادس والثلاثين. ويستطيع الطبيب بمراقبتها وربطها بحركات وسـكنات جسدي، أن يرصد أوقات نومي ويقظتي، وهي مؤشـرات يهديه ويعلمـه الله بها مراقبة صحتي وحياتي.

(*) أستاذ أمراض النساء والتوليد، كلية الطب جامعة سوهاج / مصر.

أديب إبراهيم الدباغ*

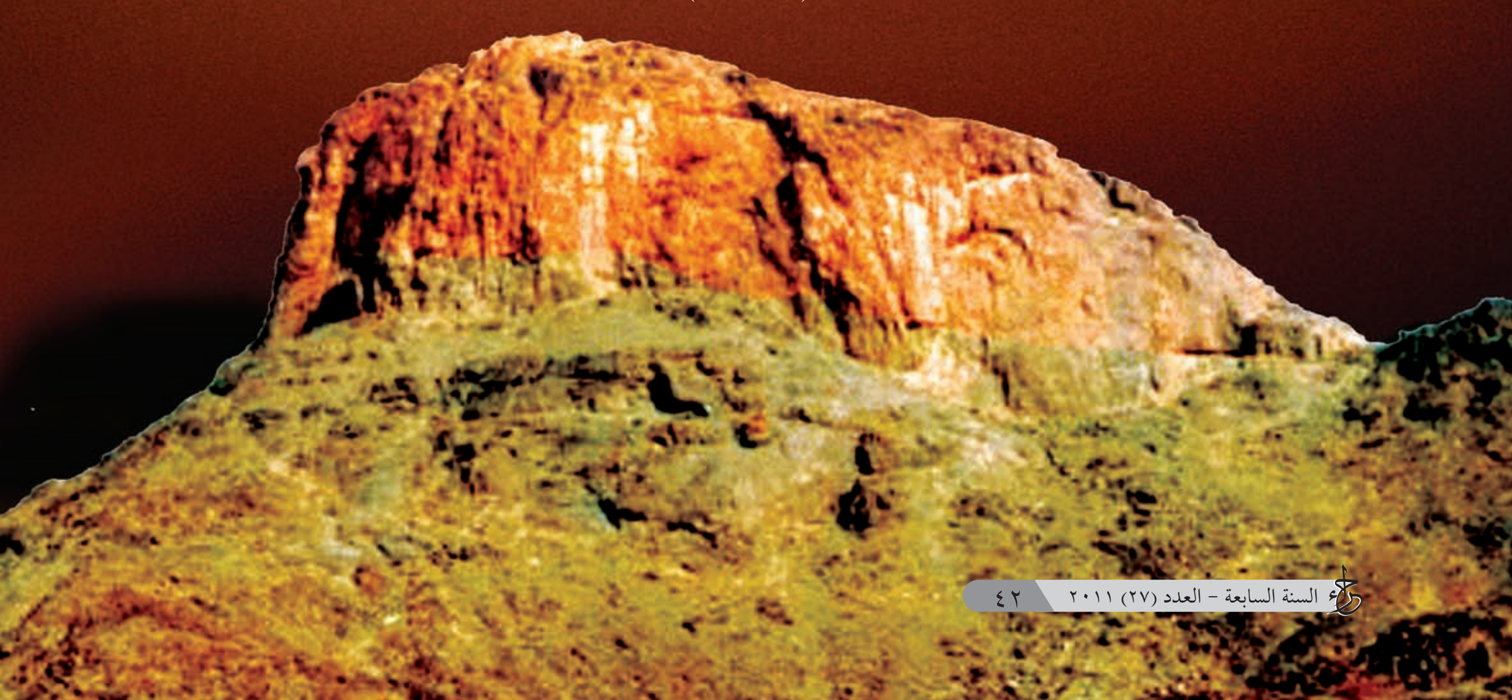
ليكن صدرك عميقًا كالبحر، واسعًا كالفضاء، مفعم الإيمان، مترعًا بمحبة الإنسان... بيدك الحانية امسح قلوب الحزانى، وكن بلسمًا وعزاءً لجراحات النفوس وأوجاع الأرواح.

* * *

الذِّبْح العظيم

﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾

(الصافات:١٠٢).



ي

﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾(الصافات:١٠٢).

افعل أبي ما تؤمر، حدَّ سكينك، وارهف شفرته، اسقها ماءَ عطفك، واغمسها في رحيق روحك، وكالبرق الخاطف دعها تنزل على رقبتي وتحزَّ حلقي وتفجر دماء نحري، وإذا ما أخذتَ بناصيتي، ومن شعفة رأسي أمسكتَني، ثم للجبين تليتني... فاعصب عينيّ حتى لا أراك وأنت تهمُّ بي فأفزع، وربما ارتجف قلبي، وجفلتْ روحي فأتردّد قليلا، وأصير عاقًّا، وفي سجل العاقّين يكتبُ اسمي، وعاصي الأقدار يُرسَم شخصي!

ما رعشة أراها في يدك، وصفرة ألحظها في وجهك، ودمعة تخضلُّ بها لحيتك؟! تماسكْ يا أبي... أيُّها الأوَّاهُ الحليم... يكاد السكين من يدك يسقط، ومع دمعتك ترسل ذَوبَ نفسك، وآهات روحك، وصرخات ضميرك، وتوجعات قلبك. بي لا تأخذك الشفقة، وعليَّ لا تحزن، وأمرَ ربك أَطِع، فأنا على الآلام مستكبر، وشلاّل الدّم لن ينال هضبات روحي ولا يشارف سوامق إيماني.

لإمضاء أمره اختارني القدر، ولإنفاذ حكمه أرادني، والذبيح سَمَّاني، ورمزًا للتضحية والفداء أقامني. والبشرية ذاهلة والهة واجمة، تحبس أنفاسها وآهاتها، وألف سؤال في ذهنها يدور. ماذا دهى النبُّوات، أم بهذا تمتحن الإرادات، وتختبر العزائم والطاعات، أم هكذا تكون التضحيات؟! فيا ويح الأوَّاه الحليم... بابنه يهمُّ وبفلذة كبده يُفَرِّط!

ها هي البشرية ترمق الفتى بنظرات الشجى والحنين، وروح الأب المسكين في سلسال آلام تذوب، لكنها لا تنهزم، وعلى إمضاء الفعل تصرُّ. إنها تسلم نفسها لامتحانات القدر، معزيةً ذاتها بأبدية الانتساب وخلودية المأوى الأمين. إنها ذبحة صدر لا تطاق، لكنها لا تقتل العزائم ولا تَفُلُّ غربَ الإرادات.

وسرعان ما احدودب ظهره، وانحنى صلبه، وزاد خفقان قلبه الكليل. وبنبضات قلبه الواهنة يلج صورة التصديق، ويحضر في بؤرة "الرؤيا" ليرى حقيقة الحقائق التي تضلُّ عنها الحواس والعقول، ولا تقبل الرسم بالكلمات ولا بالأفكار. إنه يعتنق الروح الإلهي في لحظة من أخصب لحظات النبوة، وأشدّها توترًا، وأعمقها استجابة، وأعلاها شهامة قلب، وأحدّها يقظة بصر.

أمِن موجبات "الخلّة" أن تُمتحَن بابنك، وأن يُصبّ عليك البلاءُ صبًّا، ليحرّك فيك كلّ ساكنٍ من روحك، وكل مطمئنٍّ من قلبك، وكلّ آمنٍ من فكرك؟ إنك الشعلة الإلهية التي لا يريد لها الله تعالى الذواء والذبول، ولا لقريحتك النبوية أن تصاب بالخمود والكلال، فعليك إذن أن تعاني من برحاء الألم والعذاب لتظل جذوتها في توهج وفتيلها في اشتعال. إنه الرزء الفادح والألم البارح، غير أن شفتيك مطبقتان، لا تهمّان بصيحة ولا تندُّ عنهما نأمة، لا شكاة، لكنه أنين مكتوم يهزُّ أجواء الضمير، ويحرّك قوى النبوة الكامنة في الأعماق لتتواثب في الآفاق وتستقر في القلوب والأذهان.

إن بعض الأيام القدرية -ومهما بدت ضرباتها موجعة وقاسية ومجافية للمنطق، غير أنها- تفجّر فينا ينابيع من قوى البطولة والحماس والإقدام، فننهض من جديد بأعلى هامات نفوسنا، وأعظمَ شموخ إنسانيتنا، وبأرقى إدراكاتنا لمجريات أسرار القضاء وخفايا سريان القدر.

يا أنّات روحي اصمتي، ويا موجعات قلبي تَصَبَّري، ويا مَدَامِعَ نفسي كُفِّي واكففي، ويا إشفاقات قلبي تنحّي اليوم عنّي، ويا مساكبَ الرحمة أمسكي، ويا خفقات الحنان والتَّحنان أطلقي يدي، بيني ومقبض السكين لا تحولي... فتصديق "الرؤيا" شأني اليوم، وطاعة القدر في ابني شغلي الشاغل. لن أنكص على الأعقاب، ولن أكون أول خليل يعصي خليله وحبيب يجافي حبيبه.

ما دمٌ مطلول، ولا قلب مفجوع، ولا روح مسلوب، ولا فتىً على الثرى طريح مصروع، ولا سكين بيد النبوة للذبح مرصود... سوى أجزاء صورة لمّا تكتمل بعد. وهي في نية "الخليل" قائمة حاضرة، وبين ناظريه مجسّمة وعلى بعد لحظاتٍ من سكينه،وفي غيبوبة نشوته في امتثال الأمر الإلهي إذا بالهتاف السماوي آتٍ من الأعالي: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۞ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ۞ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ۞ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾(الصافات:١٠٣-١٠٧). ■

(*) كاتب وأديب عراقي.

حسن يوسف شهاب الدين*



الهمّ والهرم

من منظور القرآن الكريم والسنة النبوية

ذكر الله تعالى في القرآن الكريم آيات جلية تتحدث عن الاضطرابات النفسية وأثرها على الصحة الجسدية موضحة العلاقة بين النفس والجسد، وحذرنا الرسول الكريم ﷺ من الانفعالات النفسية الحادة ليضمن لنا حياة ملؤها الصحة والسعادة.

وهذا الموضوع يتطرق إلى تأثير الاضطرابات النفسية على الجسد، وعلاقة الهم والحزن بالهرم والشيخوخة من منظور القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

الاضطرابات النفسية وتأثيرها على الأجزاء العضوية

للنفس البشرية خصائصها التي أودعها الله تعالى فيها بتقدير منه وحكمة بالغة لما تحمله من مظاهر طبيعية، مثل الحزن والفرح والخوف والجزع والكآبة والهم والغم وغيرها من

الشعور بالأسى، لمدة محدودة تجاه الحوادث المؤلمة التي يصادفها الإنسان في حياته، لتحدث تغيرات فيزيولوجية تظهر على جسمه، مثل تغير لون الوجه وتصبب العرق والضحك والعبوس وغيرها من المعالم التي تدل على الشعور الذي يحس به. وقد يكون التغير داخليًا يحس به الشخص نفسه، مثل تسرع نبضات القلب وضيق النفس وغيرها من الأعراض.

قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾(الأنعام:١٢٥)، وقال ﷻ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾(النحل:٥٨).

ولكن كل شيء زاد عن حده انقلب ضده. فعندما تطول هذه المدة أكثر من المألوف، يصبح الإنسان كئيبًا مثقلاً بالهموم والآلام.

وكان النبي ﷺ يقول: "اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والهرم، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، وأعوذ بك من عذاب القبر" (رواه البخاري).

وقد حذر رسول الله ﷺ من الغضب بقوله: "لا تغضب"، وليس المقصود بالغضب هنا الغضب العادي (حالة عابرة)، وإنما الغضبَ المتكرر الذي يتعدى الحد المقبول، لأنه يمكن أن يؤدي إلى الإضرار بشرايين القلب، واحتمال الإصابة بأزمات قلبية قاتلة، وخلل في جهاز المناعة الذي سببه العلاقة بين الانفعال الحاد والغدد الحيوية في الجسم التي تتقلص وتفرز عصارتها تحت تأثير أزمات نفسية خطيرة، لتتعرض المواد الفعالة المنطلقة من إحدى هذه الغدد للضعف الشديد، مما يؤدي إلى احتمال تحول الخلايا السليمة إلى خلايا سرطانية في غياب النشاط الطبيعي لجهاز المناعة.

الناحية العلمية في الاضطرابات النفسية

أكد العلماء أن العديد من الاضطرابات النفسية تؤثر على الجسد، فالأمراض النفسية والضغوط الاجتماعية المزمنة تؤثر على مناعة الجسد ومقاومته للأمراض، وأن الضغوط النفسية قد تسهم في نشوء أمراض عضوية؛ كالسكر والسرطان وأمراض القلب والجلطات، وغيرها من أمراض الغدد الصماء والاضطرابات الهرمونية والشيخوخة والهرم.

يقوم الجهاز العصبي بالتحكم في بعض وظائف الأعضاء في الجسم؛ كضربات القلب وضغط الدم وعمليات الهضم وجهاز المناعة والغدد الصم، وتتصل معها اتصالاً مباشرًا.

وعندما يحدث أي خلل في عمل الجهاز العصبي بسبب الانفعالات النفسية، سيؤدي إلى خلل في الأجهزة الأخرى مسببًا الأمراض العضوية.

أهم الأمراض الناتجة عن الإجهاد النفسي

١-الانفعالات النفسية واضطرابات الدماغ: إن الضغط النفسي يؤدي لظهور اضطراب بين كيمياء المخ والموصلات العصبية، حيث إن الضغط النفسي يؤدي إلى إفراز هرمون الكورتيزول (قاتل التركيز) من الغدة الكظرية الموجودة فوق الكلى، الذي يؤدي إلى زيادة إفراز هرمون الأنسولين ويمنع منطقة قرن آمون في المخ المسؤولة عن الذاكرة من استعمال السكر، وبالتالي نقص الطاقة الذي يؤدي إلى نقص كفاءة المخ كيميائيًّا في عمليات تخزين معلومات جديدة واسترجاع المعلومات المخزنة، مما يؤدي إلى النسيان وضعف الذاكرة.

٢-تأثير الاضطراب النفسي على جهاز المناعة: حيث تفرز الغدد الصماء هرمونات تزيد عن حاجة الجسم الطبيعي إليها أثناء الاضطراب النفسي، مثل "الأدرينالين" من الغدة النخامية و"النورابنيفرين" من نخاع غدة الأدرينال (جار الكلوية)، ويقوم الإجهاد النفسي بصرف المدخرات التي كانت مخصصة لعمليات البناء في الجسم، واستخدامها للدفاع عنه عند الحاجة، مما يؤدي إلى ضعف في مناعة الجسم.

كما يزيد الضغط النفسي من نفوذية الشعيرات الدموية في المخ الذي يسمح بمرور الكثير من المواد الكيماوية إلى داخله، مسببًا أعراضًا لا تحدث إلا بنفاذها مثل الصداع والغثيان والدوخة.

والإجهاد المتكرر يسبب ارتفاع ضغط الدم، ومع الزمن يؤدي إلى زيادة سمك الشرايين التي تحمل الدم إلى النصف الأمامي من المخ، الأمر الذي قد يؤدي إلى حدوث الجلطة أو سكتة دماغية.

٣-ظهور المياه البيضاء في العين: قال الله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾(يوسف:٨٤).

قام العالم المسلم فضيلة الدكتور "عبد الباسط محمد سيد" الباحث بالمركز القومي للبحوث في مصر، بتصنيع قطرة لمعالجة العين من المياه البيضاء من تدبره وتفكره بآيات الله البينات من سورة يوسف، وعندما سئل عن العلاقة بين الحزن وظهور هذه المياه في العين أجاب قائلاً: إن الحزن يسبب

زيـادة هرمون "الأدرينالين" الذي يعتبر مضادًّا لـ"الأنسـولين"، وبالتالـي فإن الحزن الشـديد يسـبب زيـادة مسـتمرة في هذا الهرمـون الذي يـؤدي بدوره إلى زيادة سـكر الدم، وهو أحد المسـببات التـي تغير في طبيعـة البروتيـن (Denature Protein) الموجـود في عدسـة العين، ويكون موزعًـا ومرتبًا في صورة صغيـرة مكونة من ذراعين مطويين حـول بعضهما في صورة متناسـقة لتـؤدي عملها فـي إنفاذ الضوء السـاقط على العين. وتغيـر طبيعـة هذا البروتين تؤدي إلى تغير في درجة التناسـق والترتيـب الدقيـق والمنظم له، وهذا التغير يـؤدي إلى توزيع عشـوائي ليصبح البروتين غيـر قادر على القيام بوظيفته. ومن هـذا الاختـلال تبدو سـماء النهار عند المصـاب وكأنها مليئة بالغيوم، وبالتزايد المستمر لحالة عدم التناسق يؤدي إلى العتمة.

ومن أسـباب ظهور المياه البيضاء فـي العين أيضًا، تزامن البـكاء ومـرض السـكر الذي يزيد مـن تركيز السـوائل حول عدسة العين التي تقوم بامتصاص ماء العدسة.

ولقد حذر الرسول الكريم ﷺ من الحزن على الفقيد أكثر من ثلاثة أيام عندما قال: "لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج" (رواه ابن ماجة). والحداد على الميت هو الحزن عليه. ومن التعاليم النبوية التي لا تخفى علـى أحد، النهي عن البكاء الشـديد والصـراخ على الميت.

٤-أمراض جهاز الهضم: قد يؤدي تكرار حدوث الانفعالات النفسـية غير السـارة إلى تعطيـل وظائف جهـاز الهضم؛ مثل سـوء الهضـم وخلل فـي إفراز العصـارة المعديـة التي تعمل على تسـهيل عملية الهضم، بل تؤدي أحيانًا إلى تلف أنسـجة الجسم كما هو الحال في القرحة الهضمية؛ مثل قرحة المعدة وقرحة الإثني عشر والتهاب القولون.

ومـن هنـا نجـد تأكيد رسـول الله ﷺ بالابتعـاد عن الحزن والهـم لضمـان سـلامة الإنسـان النفسـية والجسـدية بقوله: "التدبير نصف المعيشـة، والتـودد نصف العقل، والهم نصف الهرم، وقلة العيال أحد اليسارين" (رواه السيوطي).

علاج الهم

١-النشاط الذهني: أثبتت الدراسة أنه يمكن علاج هذه الحالة بعمليـة النشـاط الذهني كالتفكـر في خلق الله مثـلاً. ولحفظ الإنسان من أعراض النسيان وضعف الذاكرة، ولتنشيط عملية التذكر، أمرنا الله ﷻ بالتفكر والتدبر في الخلق، قال الله تعالى فـي القرآن الكريم: ﴿الَّذِيـنَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًـا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِـمْ وَيَتَفَكَّـرُونَ فِـي خَلْـقِ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَـا مَا خَلَقْـتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَـذَابَ النَّارِ﴾(آل عمران:١٩١)، وقـال العزيز العليم: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(النحل:٤٤)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِـعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْـيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الحشر:٢١).

هـذا هـو القرآن الكريـم، فيه كل ما يريد الإنسـان ليرتقي إلـى درجـات عالية من العلـم والمعرفة والأخـلاق الفاضلة. وبالتطبيـق الصحيـح لمـا أمـر الله تعالى والابتعـاد عن كل ما نهى عنه، نعيش حياة رغيدة ملؤها السـعادة والمحبة متنعمين بالصحة النفسـية والجسـدية، نعيش حياة الشـباب فرحين بما آتانـا الله من فضله، مقتنعين برزقنا وعمرنا وصحتنا، ومؤمنين بقضاء الله تعالى وقدره.

لأن القـرآن الكريـم كتاب من عند الله، أنزله على رسـوله الكريـم ليخرج النـاس من الظلمات إلى النـور بإذنه، قال الله ﷻ: ﴿الـر كِتَابٌ أَنْزَلْنَـاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّـورِ بِـإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيـزِ الْحَمِيدِ﴾(إبراهيم:١)، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾(النحل:٨٩).

وحضّ النبي محمد ﷺ على التعلم والتفكر والتدبر عندما قال: "تفكروا في كل شيء، ولا تفكروا في ذات الله، فإن بين السماء السابعة إلى كرسيه سبعة آلاف نور وهو فوق ذلك".[1]

٢-النشاط البدني (ممارسة الرياضة): عن أبي هريرة ﷺ قال: قـال رسـول الله ﷺ: "المؤمـن القوي خير وأحـب إلى الله من المؤمـن الضعيف وفي كل خير، اسـتعن بـالله ولا تعجز، وإن أصابك شـيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان" (رواه مسلم).

أكدت الدراسة أن النشاط الجسماني والتمرينات الرياضية هي إحدى الطرق التي تخفف الضغوط النفسـية، وهي مفيدة لصحة القلب والشرايين، حيث إن الرياضة تساعد على إفراز هرمونـات إيجابية في الجسـم وتسـاعد الرياضـة على تقوية الجهـاز المناعي، وبعض التمرينـات الهوائية تؤدي إلى زيادة تروية المخ بالدم وتحفز نمو الخلايا العصبية.

٣-كظم الغيظ والحلم والتسـامح والعفـو عند المقدرة: قال الله تعالـى: ﴿وَالْكَاظِمِيـنَ الْغَيْـظَ وَالْعَافِيـنَ عَـنِ النَّـاسِ وَاللهُ

يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(آل عمران:١٣٤)، وقال سبحانه: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۞ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(فصلت:٣٤-٣٥)، وقال الله تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾(الشورى:٤٣).

ونستنتج مما تقدم أن التخلص من الصفات السلوكية السيئة مثل العداوة والمنافسة الحادة وغيرها من الصفات التي تؤدي إلى الإجهاد النفسي، هو أمر من الله ﷻ ليحفظ به نفوسنا وصحتنا لنكون كما أراد لنا أن نكون، نتمتع بالقوة والصلابة وفي نفس الوقت بالحلم والتسامح.

٤-ذكر الله تعالى والاستقامة والدعاء: قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(الرعد:٢٨).

متى تكون النفس سليمة؟ وكيف يمكننا المحافظة عليها مطمئنة نقية لا تهزها الأزمات والمحن، وترضى وتتقبل مصابها بصدر رحب وصبر جميل. طبعًا عندما تكون هذه النفس راضية ومؤمنة ومستقيمة، تعلم أن الخير من الله تعالى والشر إما أن يكون "بلاء" أو أن يكون "ابتلاء". وواجب على الإنسان في حالة النعم الوافرة الشكر وزيادة العمل الصالح اعترافًا منه بهذا الفضل، وفي حالة المصائب فيعلم أن الله تعالى إذا أحب العبد امتحنه واختبر درجة الإيمان في قلبه، وإما ليكفّر عنه ما مضى من خطاياه ليعيش حياة الآخرة في جنات عرضها السماوات والأرض، قال ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾(فصلت:٣٠).

وبالدعاء إلى الله تعالى وإحساسك الدائم أنك بحاجة لكرمه وتفضله عليك، وشكره سبحانه على نعمه الظاهرة والباطنة، يولد نفسًا غنية مطمئنة متفائلة. وهذا الشعور يبعد عنك الهم والحزن وأسباب المرض النفسي والجسمي. قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾(فاطر:٣٤). ■

(*) مدرس فيزياء وباحث في الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة / سوريا.

الهوامش:

(١) كنز العمال، للمتقي الهندي، المجلد الثالث، رقم الحديث: ٥٧٠٤.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

السيف والقلم

متى يا سيوفُ أقلامًا تَعُودين؟
متى يا دماء على الأرض تجفّين؟
والسيفُ إنْ عادَ قلَمْ،
مَسَح الألَمْ،
وهتك الظُّلْمَ والظُّلَمْ،
وعالج الداء، وجاء بالدواء...
فمِداد الأقلام في عقول الأجيال،
أوقعُ اليوم من سيفٍ كرّار،
ودمٍ هدّار،
وهو في الميزان
كنجيع الشهداء في الميدان...

* * *

صلاح عبد الستار الشهاوي*



عباس بن فرناس

أول رائد فضاء في التاريخ

كانت مباحث أولاد موسى، وثابت بن منصور، والخوارزمي، والبتاني، ويحيى بن منصور، بداية لتطور علم الفضاء عند المسلمين. ثم شد من أزر هذه الطائفة من علماء المسلمين جهد علماء الفلك المسلمين، بدراساتهم العميقة في "علم الفلك". وفي أفياء الحضارة الإسلامية نهض علماء أفذاذ إلى إجراء التجارب في عالم الطيران، وهذه البدايات كانت المحاولات الرائدة في ارتياد عالم الفضاء.

ومن هؤلاء الرواد الأوائل الذين تدين لجهودهم العلمية حضارة اليوم بالفضل، عالم مسلم فذ هو "عباس بن فرناس"، حيث عالج فنونًا من شتى أبواب المعرفة، واشتغل في صناعات مختلفة حتى عرف بـ"حكيم الأندلس"، والحكمة تطلق عند المسلمين على الاشتغال بصنعة الكيمياء والطب.

إنه العالم الموسوعة الذي يجب أن يذكره القاصي والداني بما هو أهله، فهو حكيم الأندلس كما قال ابن حيان القرطبي، وذلك لاشتغاله بالفلسفة واهتمامه بأدواتها وإبداعه في موضوعات الفلسفة اليونانية والإسلامية، حيث أتقن اللغة اليونانية فترجم عنها إلى اللغة العربية الكثير من

الكتب اليونانية، مما ترك أثرًا كبيرًا في الحياة الفكرية. وأبدع عباس بن فرناس في فنون التعاليم القديمة والحديثة وتتبع أصولها وإشاعة مفاهيمها. وهناك ذكر كثير في المخطوطات الأندلسية عن أنشطة عباس بن فرناس في جوانب الحكمة والفلسفة والرياضيات والطب، بجانب علم الفلك الذي برع فيه والكيمياء والهندسة والعمارة.

من هو ابن فرناس؟

هو أبو القاسم عباس بن فرناس بن ورداس التاكرتي الأندلسي القرطبي، المخترع الأندلسي والفيلسوف الشاعر، تربى في مدينة العلم والعلماء (برابرة تاكرتا) بقرطبة، ولم يذكر المؤرخون تاريخ ولادته إلا أنه عاش في القرنين الثاني والثالث الهجريين. عاصر الخليفة الأموي الحكم الأول وعبد الرحمن الثاني ومحمدًا الأول في القرن التاسع للميلاد، وأصبح شاعر بلاط الأمويين في إمارة قرطبة. وهو شخصية مسلمة فذة اهتم بالرياضيات والفلك والفيزياء واشتهر بمحاولته للطيران، إذ هو أول طيار في التاريخ. وقد أجمع المحققون من المؤرخين على أنه توفي عام (٨٨٧م)، وأجمعوا كذلك أنه عَمّر (٨٠) حولاً.

نشأ ابن فرناس وتعلم في قرطبة (منارة العلم وبلد الصناعات) التي قصدها العرب والعجم لتلقي جميع أنواع العلوم في ذلك العصر، فتعلم القرآن الكريم ومبادئ الشرع الحنيف في كتاتيب "تاكرتا"، ثم التحق بمسجد قرطبة الكبير ليتضلع وينهل من معارفه، ثم خاض غمار المناظرات والمناقشات والندوات والخطب والمحاورات والمجادلات في شتى فنون الشعر والأدب واللغة، ولتوقد ذهنه كان أدباء الأندلس وشعراؤها وعلماء اللغة يجلسون حول عباس بن فرناس -الذي اشتغل بعلم النحو وقواعد الإعراب- يعلمهم اللغة ويفك الغامض من العلوم؛ كعلم البديع والبيان وعلوم البلاغة واللغة، كما كان ابن فرناس شاعرًا مجيدًا، ومتصرفًا في ضروب الإعراب، وكان مبرزًا في علوم الفلك، ماهرًا في الطب، مخترعًا في مختلف الصنع، عالمًا بالرياضيات، عبقريًّا في علم الكيمياء.

كان يحسن الإفادة من ربط العلوم ببعضها، ويحسن الاستفادة والإفادة من جمعه بين تلك العلوم. فمثلاً كانت دراسته للكيمياء أكبر مساعد له -بعد الله- على دقته في صناعة الزجاج وعلى التمرس في الصيدلة والطب وعلى التحليق في السماء. وقد اهتدي فيما نعلمه في أمور خفيت على من سبقه من العلماء، وحسْبه ما قاله المعجبون به من أهل زمانه ومن جاء بعدهم بأنه: "من أبرز المبرزين، متفوق على أقرانه في علم الطبيعة والهيئة والرياضيات والطب والصيدلة والكيمياء والهندسة والصناعات وكل المعارف الدقيقة والآداب الرفيعة، وكان رائد محاولة تطبيق العلم على العمل، ولهذا استحق لقب حكيم الأندلس".

ابن فرناس طبيب وصيدلي

درس عباس بن فرناس الطب والصيدلة وأحسن الإفادة منهما، فقد عمد إلى قراءة خصائص الأمراض وأعراضها وتشخيصها، واهتم بطرق الوقاية من الأمراض عملاً بقولهم: "درهم وقاية خير من قنطار علاج"، ثم قام بدراسة وتجارب علاج من أصيب بالأمراض على مختلف أنواعها ثم أجرى الدواء.

كما درس خصائص الأحجار والأعشاب والنباتات ووقف على خواصها المفيدة في المعالجة. وكان في سبيل ذلك يقصد المتطببين والصيادلة ويناقشهم فيما بدا له من اطلاعه في هذه الصنعة الجليلة التي تحفظ البدن وتقيه من آفات الأدواء والأعراض. وقد اتخذه أمراء بني أمية في الأندلس طبيبًا خاصًا لقصورهم، حيث انتخب من مجموعات من الأطباء المهرة، لشهرته وحكمته وأسلوبه الجاذب عند إرشاداته الطبية الخاصة بالوقاية من الأمراض، وإشرافه على طعام الأُسر الحاكمة لإحراز السلامة من الأسقام والأمراض، فلا يحتاج إلى المداواة إلا نادراً، فإذا حصل ما يكرهون من المرض دلهم على أنجع الطرق في المداواة... ولم يكن ابن فرناس يقنع بكل ما كتبه الناس من نظريات، بل ألزم نفسه إلقاء التجارب ليتحقق من صحة كل نظرية درسها أو نقلها من غيره ليرقى بها إلى مرتبة الحقيقة العلمية أو ينقضها، وقد شجب القبول والقناعة بالأمور الظاهرة المبسطة المقدور على النظر والبحث فيها. كان ابن فرناس يغوص في تحقيق ما علم وكان يطبق النظريات العلمية على منهج علمي في كل العلوم؛ وأهمها الطب والصيدلة وخاصة دراسة الأعشاب.

آثاره واختراعاته العلمية

الميقاتة: كان أول من صنع الميقاتة لمعرفة الأوقات كما جاء في الأعلام.



المنقالة: اشتهر ابن فرناس بصناعة الآلات الهندسية مثل المنقالة (آلة لحساب الزمن)، ونرى نموذج ذلك بالمسجد الكبير بمدينة طنجة، كما اشتهر بصناعة الآلات العلمية الدقيقة.

ذات الحلق: اخترع آلة صنعها بنفسه لأول مرة تشبه الإسطرلاب في رصدها للشمس والقمر والنجوم والكواكب وأفلاكها ومداراتها ترصد حركاتها ومطالعها ومنازلها والتي عرفت بـ"ذات الحلق".

القبة السماوية: ابن فرناس هو المخترع الأول للقبة السماوية، وكان الناس يقصدون منزله لمشاهدة ما اتخذه من رسم جميل بديع في منزله. فقد مثل هيئة السماء بنجومها وغيومها وبروقها ورعودها والشمس والقمر والكواكب ومداراتها.

اختراع الزجاج من الحجارة والرمل: أجمع المؤرخون أن عباس بن فرناس كان أول من استنبط في الأندلس صناعة الزجاج من الحجارة والرمل.

الطيران واختراق الأجواء

قام عباس بن فرناس بتجارب كثيرة، درس خلالها ثقل الأجسام ومقاومة الهواء لها، وتأثير ضغط الهواء فيها إذا ما حلقت في الفضاء، وكان له خير معين على هذا الدرس تبحره في العلوم الطبيعية والرياضة والكيمياء؛ فاطلع على خواص الأجسام، واتفق لديه من المعلومات ما حمله على أن يجرب الطيران الحقيقي بنفسه، فكسا نفسه بالريش الذي اتخذه من سرقي الحرير (شقق الحرير الأبيض) لمتانته وقوته، وهو يتناسب مع ثقل جسمه، وصنع له جناحين من الحرير أيضًا يحملان جسمه إذا ما حركهما في الفضاء، وبعد أن تم له كل ما يحتاج إليه هذا العمل الخطير، وتأكد من أن باستطاعته إذا ما حرك هذين الجناحين فإنهما سيحملانه ليطير في الجو -كما تطير الطيور- ويسهل عليه التنقل بهما كيفما يشاء.

بعد أن أعد العدة أعلن على الملأ أنه يريد أن يطير في الفضاء، وأن طيرانه سيكون من "الرصافة" في ظاهر مدينة قرطبة. فاجتمع الناس هناك لمشاهدة هذا العمل الفريد والطائر الآدمي الذي سيحلق في فضاء قرطبة... صعد أبو القاسم بآلته الحريرية فوق مرتفع، وحرك جناحيه وقفز في الجو، وطار في الفضاء مسافة بعيدة عن المحل الذي انطلق منه والناس ينظرون إليه بدهشة وإعجاب، وعندما هم بالهبوط إلى الأرض تأذى في ظهره.

ولتفسير أبعاد هذه التجربة العلمية الفذة، نجد أن ابن فرناس بناها على دراسة فائقة في الفيزياء والفلك. وفي العصر الحديث، نتذكر أمر الطائرات الشراعية واتخاذ مظلات الهبوط من الحرير. كما أن محاولة ابن فرناس هذه تعدّ بداية الطريق لولوج عالم الفضاء.

وخلاصة النظرية العلمية للطيران عند ابن فرناس، أن الجسم وما يحمله لابد أن يكون خفيفًا للتغلب على الجاذبية الأرضية. فعندما يلقي بنفسه مندفعًا للأمام من شاهق،

فسيحمله الهواء على متنه، وهذه النظرية يقوم بتقليدها وتطبيقها اليوم الكثير من هواة الطيران، فيما هو معروف بالطيران الشراعي المجنح الخفيف. ويمارس هذا الطيران على نطاق واسع ومن فوق أماكن مرتفعة وفق نظرية ابن فرناس نفسها، مع إجراء تعديل طفيف عليها بتركيب الذيل للآلة الحديثة.

وقد يكون هناك خلط بين الرواة والمحققين بين ما حدث لابن فرناس وما حدث للجوهري الذي قام بتجربة مماثلة لتجربة ابن فرناس في نيسابور سنة (١٠٠٣م)، حيث صنع جناحين من خشب وربطهما بحبل حول جسمه على هيئة شراع، وصعد سطح مسجد بلده، وحاول الطيران أمام حشد من أبناء مصره، ونجح في الطيران بها بشكل باهر، إلا أن النجاح لم يستمر ولم يحالفه الحظ بسبب الإعياء فسقط شهيد العلم.

اعتراف غربي بسبق ابن فرناس

ظهرت أول دراسة حديثة حول اكتشاف أول محاولة للطيران في أوروبا، من خلال بحث علمي كتبه أستاذ التاريخ الأمريكي "لين هوايت"، وتم نشره في مجلة التكنولوجيا والثقافة (المجلد:٢-العدد:٢) عام (١٩٦٠م)؛ حيث أشار فيه إلى أن أول رائد للطيران في أوروبا هو "إيلمر مالمسبري" الذي كان راهبًا في دير "مالمسبري" بإنجلترا، وقد قام بمحاولته المبكرة للطيران في بدايات القرن الحادي عشر الميلادي، إذ -كما يقول هوايت- إن "إيلمر" صنع لنفسه أجنحة من الريش، ربطهما بذراعيه وساقيه وطار بها بنجاح لمسافة محدودة، لكنه سقط على الأرض وأصيب بكسر في ساقيه وكان ذلك حوالي عام (١٠١٠م).

ويعقب "هوايت" على هذه المحاولة قائلاً: "إنه ليس من المحتمل أن يكون إلهام "إيلمر" قد أتاه من "سوتيونيوس" الذي يصف السقوط القاتل لممثلٍ مسرحي أخذ دور "إيكاروس" في سلسلة من مسرحيات قصيرة مثيولوجية (خرافية) يلبس فيها الممثلون أقنعة كانت قد مُثِّلت أمام "نيرون" في العصر الروماني. وليس من المحتمل كذلك أن يكون إلهام "إيلمر" في الطيران قد جاءه من الأسطورة اليونانية الخرافية حول طيران "ديدالوس" وابنه "إيكاروس"؛ حيث إن هذه الأخيرة لم تكن سوى مجرد حكاية خيالية خرافية لا صلة لها بأية وقائع علمية تاريخية. وإنما الجدير بالذكر في هذا الشأن، هو ضرورة تتبع المحاولات العلمية التجريبية الشهيرة في التاريخ الحضاري قبل "إيلمر"، والتي يمكن حصرها في أضخم وأجرأ تجربة علمية للطيران هي تجربة ابن فرناس؛ إذ لم تشبها أية شائبة من خرافة أو خيال، وإنما تتصف بالمنهاجية العلمية بكل المقاييس. وبالإضافة لذلك، فإن تجربة ابن فرناس، قد صار تطبيقها وفق نظريتين علميتين وضعها العالم المسلم الشهير، مازال يؤخذ بهما إلى هذا اليوم في مجال الطيران".

ومما لا شك فيه أن تجربة ابن فرناس في الطيران، قد كانت المصدر الوحيد للأوربيين منذ القرن الحادي عشر الميلادي. فمن غير المشكوك فيه أن يكون رائد الطيران الأوربي "إيلمر" ومن جاء بعده، قد قرأوا عن تجربة ابن فرناس واتخذوا منها مصدرًا لاستلهام فكرة الطيران في أوروبا، وهو ما يؤكده الدكتور "هوايت" كاتب البحث المذكور حول اكتشاف أول رحلة للطيران في أوروبا.

ولكن ما يؤسف عليه أن كُتّاب الموسوعات الحديثة عن الإنجازات العلمية إذا تعرضوا لتاريخ الطيران، ينصفون "أرفيل رايت" (١٨٧٧-١٩٢٣م) وأخاه "يلبور" (١٨٦٧-١٩١٢م) في موسوعاتهم، لكنهم ينسون أو يتناسون منزلة المخترع المسلم عباس بن فرناس التي احتلها في التاريخ. إن عباس بن فرناس قد سبق عباقرة القرن العشرين بأكثر من عشرة قرون، علمًا أن الاختراعات في ذلك العصر تعد من عجائب الدهر. إن اختراعاته المدهشة وتجاربه المذهلة تعد من مفاخر المسلمين ومآثرهم. لقد كان صاحب مغامرات نادرة، فقد طار وحلق في الهواء كما تطير الطيور.

ورغم ذلك فإن ابن فرناس هو أول رائد فضاء في التاريخ، وله يعود الفضل الكبير في تقدم علوم الفضاء التي أخذت تتطور طيلة ثمانية قرون، حتى تمكن الأخوان "أرفيل" و"ويلبور رايت" من الطيران بواسطة الطيران الآلي في (١٩٠٣م).

إلا أنه كان أول من حفر النفق وأفسح مكانًا لأول ضوء قاد من جاءوا بعده وأغلبهم من الأوروبيين، نحو اختراع هام في تاريخ الطيران والبشرية. ■

(*) باحث في التراث العربي والإسلامي / مصر.

شامل سفر*

سليمة تبقى قراراتك إذا استعنت عليها بذي خبرة... عقلان خير من عقل واحد، وثلاثة عقول خير من عقلين... استشر وبعقلك وحده لا تستبد، وإلا وقعتَ في الإحباط، وكثرت عليك الأخطاء، وندمتَ حيث لات حين مندم.

* * *

محادثة مع إبليس



1

اختلف زيد مع عمرو يومًا، واحتدّا حتى تشاجرا، فحُسمت القضية على يد قاضٍ حصيف من حمَلة هموم الناس والقلم. وفي مدينة أخرى تخاصم فلان مع علاّن، وكان بينهما ما كان، ثم فصل بينهما قاضٍ حصيف آخر من حمَلة هموم الناس والقلم.

ومن بعيد على رابية تُطل على المدينتين، جلس "الغازي" يتجرع نجس خمرته ويتأمل. ظن أن عبقرية الفكر الآتي صوتها من أعماقه تنبع منه وحده. إلا أن "إبليس" كان يضحك من خفّة عقل الطاغية، إذ كانت ثلاثة أرباع المقترحات تأتي منه (من إبليس) لا من الغازي الغبي.

وعادت عيون الغازي بالأخبار، من "ألف": ضرب زيد ابن عمرو، إلى "ياء": تحرّش فلان بأخت علاّن، إلى ما بين هذا وذاك من حيثيات حُكم القاضي الحصيف الأول ومذهبه، إلى اعتبارات حُكم القاضي الحصيف الثاني ومَسربه.

تمتم الغازي: سأرسل مزيدًا من عيوني -أحفادَ شايلوك- يُذكّون نارَ الخلاف بين زيد وعمرو من العامة، حتى لا يعود القضاة يجدون وقتًا لا لفكر ولا لقلم، بل إنهم ربما نسوا علمهم إلا ما تعلّق منه بالخلافيات، ثم أدخل ماشيًا فوق هامات كبرائهم وأستحي نساءهم.

أجاب إبليس: لا، ما هذا عندي برأي، لأنكَ -والحالة هذه- ستنتظر طويلاً. فأولئك القوم إنْ تسنّى لأحدهم أن ينام ساعة، نفض لحافه وقام ليجعلها إمّا في سجود أو في استزادة من علم. وكلما زادت مسؤولياتهم زاد التزامهم.

تساءل الغازي: وما ترى؟

أجاب إبليس بخبث: انتظر اختلاف القضاة أنفسهم.

القضاةُ؟! قال الغازي.

نعم، قال إبليس. فأولئك قادة فكر يصنعون الأمم، فإن اختلفوا فاحتدّوا فتلاعنوا، انتقلت عدوى الشحناء إلى أنصار لهم من العامة ممن لا يفهمون رأي هذا ولا ذاك، فتزيد الغوغائية حتى يتحصل لك مرادك، فانتظر.

سأل الغازي الغبي: وإذا لم يتشاجروا، عنيتُ القضاة وأرباب القلم؟

قال إبليس: يا تعيس، لي أكثر من ألف وأربعمائة عام أزرع فيروسات التوالد الذاتي للخلاف على الجزئيات في أذهان أولئك وأتعهّدها بالرعاية والسقيا حتى نبتت شجرة من غَرْقَد في كيان فكرهم لا يقطعها إلا شجاع، وشجاعتهم إلى تراجع.

الغازي: فيروسات! إلى تراجع! ما؟

إبليس: صه، وانتظر يا جاهل، كل من ساس القلم ومكّنته الفِكَرُ من نفسها أصابه شيء من عجب أو كبر. وما لم يجاهد نفسه لكبحهما، أثار في داخله جوعًا لقطف ثمار شجرة الغرقد إياها، فإن أكل زاد جوعه وتاه. وترى أحدهم إذا ما توهّم أنه بزَّ أخاه في مناظرة يعلو ويتيه، فتنتقل عدواه إلى أخيه المتوهّم هو الآخر حتى ليذكّرني الاثنان بأيام كنت فيها ألهو في أهل بيزنطة.

الغازي (متحديًا): وما شواهد ما تقول؟

إبليس: خمسون عامًا من كلامهم في حقوق نسائهم التي ليس لها مثيل في العالم أجمع، ودينهم قد حفظها، ومائة عام أو يزيد قضوها في البحث عن أنموذج من أمم غيرهم كي يقتدوا بها وهم -إن اتبعوا دينهم بعقل- أحقّ أن يقتدى بهم. ومئات من السنين من مداولاتهم حول الأخذ بظاهر النصّ أو باطنه، وكلاهما -إنْ أُحسنتْ قراءته- خير عميم. وآلاف الصفحات حول الصلاة بضمّ اليدين إلى الصدر أو إلى ما فوق السرّة أو إسبالهما، وحداثة تافهة وما بعدها أتفه. وسريالية وانطباعية، وواقعية ورومانسية، ومتقدمون ومتأخرون، وسلف وخلف، وسقيفة وخلافة... وهل صوت المرأة عورة أم غير ذلك... وهل تقود المرأة الهودج أم لا تقود... وهل لها في الشورى كما فعل عمر أم ليس لها... وهل مُعْمِلُ عقله كافر بالإجماع ويجب أن يُستتاب أم أن الغبي المتواكل أفضل منه...

الغازي: ولم بذلت كل هذا الجهد؟

إبليس: إنه الاقتصاد يا غبي، وأهمّ عنصر في بند الإنفاق الاستهلاكي في عالم الاقتصاد، إنما هو أخطر عدوّ لهم ولبني الإنسان كلهم. أتعرف ما هو؟

الغازي: الخلاف؟

إبليس: لا... بل هو الوقت الذي ينفقونه على الخلاف بغبائهم؛ الوقت الذي يعمل فيه غيرهم فيخترعون ويطوّرون ويعمّرون، ويحسّنون سلاحك هذا الذي ستغزو به.

الغازي: إذن أنتظر؟

إبليس: نعم، انتظر. ■

(*) كاتب وأديب سوري.

أ.د. بركات محمد مراد*

إذا كنت تريد أن تكون رجل علم بحق، فاستعن بتجارب الآخرين وتعلم منهم، وسر على هداهم، وابحث ودقق وجرب ليطمئن بالك ويتيقن عقلك وتزول شكوكك.

* * *

الصيدلة الإسلامية

الصيدلة قديمة قدم معرفة العقاقير والنباتات الطبية. فالإنسان الأول في تجواله بحثًا عن غذائه بين الأشجار والحشائش (النباتات) لابد وقد قابل منها ما لم يستسغه فتحاشاه وما ضره فتجنّبه. ومن معلوماته هذه عن تلك النباتات الطبية والعقاقير، ومن ملاحظاته ومشاهداته عما نتج عن تعاطي هذه النباتات، كانت أول المعرفة عن الطب، ومن هنا عُرف العشّاب الأول ونشأت صناعة العقاقير والصيدلة.

وبتقدم معلومات الإنسان، تمكّن من الاستفادة من هذه النباتات وأجزائها في إصلاح بدنه وعلاج جراحه وأمراضه، فصارت المعرفة بالصيدلة والطب اللذين تمرس بهما القدماء -من البابليين والأشوريين والصينيين والهنود والمصريين- أمرًا مقدسًا. ثم جاء اليونان فارتقوا بهما، ثم انتقلت منهم هذه المعرفة إلى المسلمين الذين كانوا أعظم المهتمين بها، فحافظوا عليها وأجادوها وتوسعوا فيها وطوروها واستحدثوا فيها الكثير.

ولا شك أن الصيدلة كانت في بدء أمرها متصلة اتصالاً وثيقًا بالطب، حيث كان الطبيب يحضّر بنفسه الأدوية التي يصفها لمرضاه، ثم أخذت شيئًا فشيئًا تنفصل عنه. لقد كان كل طبيب صيدلانيًا، وكان له مساعدون يساعدونه في جمع النباتات الشافية، ولكن كثرت العقاقير وتشعبت طرق تركيبها، فأصبح من الضروري التفرغ لها وتكريس الوقت والجهة الكافيين لغرض تهيئتها للمريض، فانقسمت مسؤولية "الطبيب الصيدلي" و"الصيدلي الطبيب" إلى قسمين، وأصبحت هذه المسؤولية الواحدة مسؤوليتين ترتبطان بمهنتين قائمتين بذاتهما، هما مهنة الطبيب ومهنة الصيدلي. فأصبح الصيدلي هو الذي يجمع الأدوية ويختار الأجود من أنواعها، على أحسن التراكيب التي وضع أسسها أفضل الأطباء والعشّابين.

ريادة المسلمين في تأسيس الصيدلة

ولقد اكتشف المسلمون أدوية جديدة منها؛ الكافور، والصندل، والراوند، والحنظل، وجوز الطيب، كما اخترعوا الكحول، والمستحلبات، والخلاصات العطرية، مثل الرازي حيث استخدم لأول مرة الزئبق في تركيب المراهم وجرب



مفعولـه على القـردة، بالإضافة إلى اكتشـافهم أنواعًا مختلفة من الأشـربة. وكان الأطباء المسلمون أول من وصف القهوة كـدواء للقلـب، ووصفوا القهـوة المطحونة كـدواء لالتهاب اللوزتيـن والزحـار والجـروح الملتهبـة، ووصفـوا الكافـور لإنعاش القلب.

والمسـلمون هم أول من ابتكر الشراب الحلو المستخرج من نبات الكرنب مع السـكر، ولا يزال الغـرب يطلقـون عليـه كلمـة "Syrup" وهـي مأخـوذة مـن كلمـة "شـراب" العربيـة، كمـا أن المسـلمين هـم أول مـن غلف حبات الأدويـة المُرة بغلاف مـن السـكر ليتمكـن المريـض مـن استسـاغة الـدواء. وأمـا عـادة تغليـف حبـات الأدويـة بالذهـب والفضـة -في الوقـت الحاضر- فهو تقليـد يعود إلى ابن سـينا الذي وصف الذهب والفضة كأدويـة مفيـدة للقلـب، وقـام بتغليـف الأدويـة المعمولة على شـكل حبوب.

وبرع الأطباء المسلمون في تحضير وصنع وتركيب الضمادات والمساحيق والمراهـم... وقـد وفقـوا إلـى صنـع مراهـم تجف مع الوقت كشـماعات الجروح الحديثة. وضع المسـلمون عصارة أفكارهم ونتائج تجاربهم في كتب خاصة سـميت بـ"الأقراباذيـن" نشـرت فيما بعد على أسـس صالحة للاستعمال تحت عنوان "وسائل شافية" وتناولها الجميع.

والحـق أن المسـلمين هـم أول من أسـس الصيدلة، فقد أضافـوا تركيبـات جديـدة وابتكارات علمية لـم تكن معروفة قبلهـم، كما أنهم أول من كتـب وألّف في العقاقير. ومن أهم مآثر المسلمين في علم الصيدلة إدخالهم نظام الحسبة ومراقبة الأدوية، إذ أن بعض الصيادلة لم يكونوا أمينين ومخلصين في أعمالهـم، فأمر الخليفة العباسـي المأمـون (٢١٨هـ) بامتحان أمانـة الصيادلـة. ثـم أمـر المعتصـم سـنة (٢٢١هــ) أن يمنح الصيدلـي الـذي تثبـت أمانته شـهادة تجيز له العمـل. وانتقل نظام الحسبة إلى أوربا ولا تزال كلمة "محتسب" تستعمل في اللغة الإسبانية بلفظها العربي حتى الوقت الحاضر. لقد وضع فـي عهـد المأمون نظام خـاص لامتحـان الصيادلة للحصول على إجازة الممارسة، كما كانت الصيدليات خاضعة للتفتيش المنتظـم، وكان لـكل مدينـة كبيرة عميد للصيادلـة يدعى في حينه بـ"العطارين" أو "العشابين".

إن تفـوّق المسـلمين في علـم الكيميـاء مكنهم مـن ابتكار أدويـة لم تكـن معروفـة مـن قبل، ركبوهـا وأضافوا إلى ما عرفوا من صنوفها عن الهنود واليونان. فكانوا بهذا، سباقين إلى ابتـداع "الأقراباذيـن" أو "الفارماكولوجـي" علـى الصورة التي وصلت إلينا.

حركة الترجمة والتأليف عند المسلمين

لقد اسـتعمل الصيادلة المسـلمون جميع الأدويـة التي كانت معروفـة قبلهـم، كمـا أضافـوا عليهـا الكثيـر مـن مبتكراتهـم ومكتشـفاتهم. ولقـد كان للأدويـة النباتية ومشـتقاتها الأثر الكبير فـي مسـتحضراتهم، كمـا ترجمـوا عن الهنديـة واليونانيـة، وكان أهم ما ترجم إلـى العربيـة كتـاب "المفـردات الطبية النباتيـة" لـ"ديسـقوريدس"، وكان أول مـن ترجمـه "اصطفيان بن باسـيل" في عهـد الخليفـة العباسـي المتـوكل على الله. وكما كانت النهضة في الشـرق في أوجها لم تكن الأندلس بأقل منها حركة في الترجمة والتأليـف؛ فقد عني رجال الأندلـس مـن خلفـاء وأمـراء وعلمـاء ووجهـاء وأثريـاء... بتشـجيع حركـة التأليف والنقل فترجموا كتبًا جديدة.

وقـد أنجبـت الأندلـس علماء أكفـاء في مختلـف العلوم الطبيعية وخاصـة علم النبات. وجمع الطبيب القرطبي أحمد بـن محمد الغافقـي (ت٥٦٠هـ) في كتابه "جامـع المفردات" نباتـات إسـبانيا وإفريقية، وسـمى كلاًّ منها بأسـمائها العربية واللاتينيـة. ولقـد كان لكتابه "الأدويـة المفردة" أهمية كبيـرة، حيـث إن مواطنـه وزميله ابـن البيطار -الـذي عـدّ من أشـهر علمـاء الكيمياء والصيدلـة فـي عصـره- اقتبـس كثيـرًا مـن مفرداتـه، وكان يختـار النباتـات والأعشـاب ويحفظهـا ويبحـث عـن مواضـع إنباتها. ولقد جاء في كتابه مـا يزيـد علـى (١٤٠٠) نوع من النبات

ذكر معظمها وخواصها وصفاتها، وكثير من هذه النباتات والأعشاب ما تزال تستعمل بأسمائها العربية بعد أن كتبت باللاتينية.

ولا ننسى أنه منذ عصر المأمون -في القرن التاسع الميلادي- أصبحت الصيدليات تحت إشراف الدولة، وأصبح الصيادلة يخضعون لفحص مسلكي وطبي يكشف عن مهاراتهم وتخصصهم الدقيق، فتعددت -بذلك- التجارب وكثرت المواد التي ابتكرها المسلمون.

ويكاد لا يخطئ من يقول إن ثلث مؤلفات المسلمين الطبية قد انصبت على الوقاية من الأمراض والمحافظة على الصحة. ومن دلالات هذا الاهتمام أن يخصص علي بن عباس في كتاب "الصناعة الطبية" واحدًا وثلاثين فصلاً في حفظ الصحة وتدبيرها بالرياضة والاستحمام والغذاء والشراب والنوم والجماع والهواء النقي، وفي تدبير من ناله إعياء ومن في أعضائه آفة أو في جسمه ضعف، والتحرز من الأمراض الوبائية والأسباب المنذرة بحدوث أمراض شائعة، بل يتحدث عن الأمراض النفسية وغير ذلك مما يدخل فيما نسميه اليوم بـ"علم الصحة".

ومثل هذا في كتب غيره من أطباء المسلمين كثير، لأنهم جاهروا بأن حفظ الصحة والوقاية من الأمراض، أهم من مداواة المرض وأكثر نفعًا، لأن الصحة في الأصحاء موجودة وفي المرضى مفقودة، وحفظ الموجود أفضل من طلب الشيء المفقود.

صلة الصيدلة بالطب

وقد تشعب الطب الإسلامي في العصور الوسطى فروعًا تخصص في كل منها فريق من الأطباء. وفي هذه الفترة أيضًا، ظهرت الصلة الوثيقة بين الصيدلة والطب، حيث كان الطبيب يعدّ أدويته بنفسه حسب معرفته وتجاربه الخاصة، والدليل على ذلك التآليف الكثيرة التي وضعها الأطباء في الصيدلة، أي فبالأدوية المفردة والمركبة سواء كانت من نبات أو من حيوان أو معادن.

وعلى الرغم من اعتماد الصيادلة المسلمين في بداية أبحاثهم ودراساتهم على كتب السابقين، إلا أنهم تمكنوا من إضافة مادة طبية غزيرة -سواء كانت نباتية أم حيوانية أو معدنية- بفضل اتساع رقعتهم الجغرافية ونمو كثير من النباتات الطبية فيها، بالإضافة إلى تفوّقهم في علم الكيمياء مما مكنهم من ابتكار أدوية لم تكن معروفة من قبل، ركبوها من تلك الأصول وأضافوا إلى ما عرفوا من صنوفها عن الهنود واليونان. فكانوا بهذا، سباقين إلى ابتداع "الأقراباذين" أو "الفارماكولوجي" على الصورة التي وصلت إلينا.

ولا أدل على تقدم المسلمين في علم الصيدلة من أنهم كانوا يتحققون من أيّ الأجزاء من النبات يكون العقار أفيد وأقوم وأفضل، وكذلك مواعيد جمع العقاقير من النبات وجنيها أو قطفها منها، وكيفية إدخالها وتخزينها محتفظة بفوائدها وقوتها دون أن يتطرق إليها الفساد مع معرفة علامات فسادها، وكذلك انتقاء أجود النبات المستخدم في صنع العقار. ولقد أطنب في هذا المجال الكثير من أطباء المسلمين كابن سينا، والطبري، وداود الأنطاكي، والرازي، والبيروني، وابن البيطار.

ولم يكن عمل ابن البيطار مبدعًا في فصل علم النبات وجعله علمًا مستقلاً عن العلوم الطبية والدوائية فحسب، بل تجلى إبداعه في المنهج الذي اتبعه في دراسة النبات وتصنيفه، ذلك المنهج الذي لم تضف الحضارة الغربية عليه حتى الآن، إلا ما يتعلق باستعمال الوسائل الحديثة كالتصوير والمجاهر.

المنهج التجريبي القائم على الملاحظة

ومن خلال المقارنة بين طريقة ابن البيطار والطريقة التي يسير عليها العلماء المحدثون، نجد أنه توجد جوانب مشتركة بين ابن البيطار والعلماء الذين اعتمدوا على المنهج التجريبي الذي يقوم على "الملاحظة". ويمكن أن نستدل على معنى "الملاحظة" من خلال مؤلفات ابن البيطار بالقول إن "الملاحظة" عنده تعني؛ التوجه الحسي والعقلي المقصود إلى ظاهرة من الظواهر للكشف عن حقيقتها ومعرفة علتها وليس الوقوف أمامها دون تعليل علمي لها، وقد ذكرها ابن البيطار بلفظ "المشاهدة".

واستخدم ابن البيطار "التجربة" وكان يطلق عليها اسم "الاختبار". فقد قام بممارستها عند اختباره للأعشاب والنباتات، لكي يستخرج منها العقاقير اللازمة لعلاج الأمراض. وكانت التجربة عنده مرتبطة بالفرض الذي يُعد أبرز صور الإبداع العلمي، وذلك بتحقيق شروط الإبداع التي تكشف عن التماثل في المختلف، والوحدة في المتنوع عندما يعتمد الباحث على ربط مسار الوقائع في خط متصل.

هذا وقد خصص ابن سينا الكتاب الثاني في الأدوية

المفـردة مـن كتابه "القانـون في الطب" لدراسـة النبات؛ قسـم الجملـة الأولى منه إلى سـت مقالات في تعرف أمزجة الأدوية المفـردة بالتجربـة والقيـاس وقواها، وقسـم الجملـة الثانية إلى عدة ألـواح وقواعـد، وذكـر فـي كل فصـل النباتـات التـي تتخـذ منهـا الأدويـة. ونهـج فـي ذكـر هـذه النباتـات منهاجًا خاصًّـا، فـكان يذكـر الماهيـة وفيهـا وصـف النباتـات وصفًـا دقيقًـا مقارنًـا هـذه النباتات بنظائرها، وموردًا صفاتها الأساسـية، ناقلاً مـا ذكره من تقدمه من العلمـاء مـن أمثـال "ديسـقوريدس" أو "جالينـوس" أو غيرهمـا، ثـم يذكر بعد ذلك الاختبار فالطبع والخواص.

وقد اسـتقصى ابن سينا نسـبة كبيرة من النباتات المعروفة آنئذ، وأورد مزاجًا مختلفًا من هذه النباتات الشجرية والعشبية والزهريـة المختلفة من الجنس الواحد، وتكلم عن المتشـابه وغيـر المتشـابه، كما ذكر موطن النبـات والتربة التي ينمو بها إن كانت ملحة أو غير ملحة.

وكذلك شـغف "القزوينـي" بعلم النبات، وأتـى في كتابه "عجائـب المخلوقـات" علـى وصف كثيـر مـن النباتات من محاصيل وخضروات وفاكهة كما تحدث عن الحركة اليومية للأزهـار، وكان اهتمامه أغلب الأمـر بالنباتات الطبية. وأورد ابن سـيده في كتابه "المخصص" وصفَ كثير من أنواع الكلأ والشـجر والعشـب والكمأة وما شـاكلها، والحنظـل والقطن والنخـل والكرم. وقد عني "الإدريسـي" بالاسـتدراك على ما أغفلـه ديسـقوريدس كالهليلـج الأصفـر والهنـدي والكابلي وخير شـنبر والتمر الهنـدي والخولجان والقاقلـة والجوزبوا والبهمـن الأبيـض والأحمـر والكبابـة والقرنفلـي والريباس وحب الزلم والآس والمحلب والتفل والأمير وغيرها، وعلل الإدريسـي عـدم ذكر ديسـقوريدس لهذه النباتـات إما بأنه لم يبلغه علمها أو لم يسمع بها.

واهتـم الإدريسـي بذكر المراجـع التي اسـتقى منها؛ مثل مفـردات جالينـوس أو حنيـن بن إسـحاق أو ابـن جلجل أو الزهراوي، وحقق أسماء النباتات بلغات مختلفة وذكرها على

> **إن المسلمـين هـم أول مـن أسـس الصيدلة، فقـد أضافوا تركيبات جديـدة وابتكارات علميـة لم تكـن معروفة قبلهم، كمـا أنهم أول من كتب وألّف في العقاقـير. ومـن أهـم مآثر المسلمـين في علـم الصيدلـة إدخالهم نظام الحسبة ومراقبة الأدوية.**

حـروف المعجم، وأورد أسـماء النبات باللغات السـريانية واليونانية والفارسية والهندية واللاتينيـة والبربرية، كما عني بتفسـير هذه الأسـماء وما تدل عليه من معان.

وكذلك فعل الداودي، والدينوري، والغافقـي، والقرطبي، وابن المصوري، فـي وصـف مئـات الأنـواع النباتية من نحـو الآراك والسـحل والأثـاب والآء والأرطـي والآس والأقحـوان والدبـاء والذنوب والعناب والبعيثران والسـنبل والعود ...إلخ.

وممـا لا شـك فيه أن أغلـب علماء النبات من المسـلمين إنما تغلب عليهم الناحية الطبيـة وإن اهتم بعضهم بوصف النباتات غير الطبية، كمـا اهتـم آخـرون كابن العوام بطـرق الزراعة وما أشـبه من موضوعات تعتبر بعيدة نوعًا ما من الفوائد الطبية أو استغلال النواحي العلاجية.

وكذلـك عنـي بعـض العشـابين مثل ابـن البيطـار وداود الأنطاكـي بوصف كثير من أنواع الحيوان مما يسـتخلص منه عقاقيـر علاجيـة، كمـا وصف البغـدادي كثيرًا مـن حيوانات مصر من سـمك وطير وسـلحفاة وفرس النهر، وكذلك فعل القزويني في كتاب"عجائب المخلوقات". ■

(*) رئيـس قسـم الفلسـفة والاجتمـاع، كليـة التربية، جامعة عين شمس / مصر.



طه كوزي*

حراء في الجزائر
وصال بعد طول انتظار



بعناية ربانية حلّت مجلة "حراء" بالجزائر ضيفًا عزيزًا وأخًا كريمًا، محمّلة بنسمات أناضولية ولطائف إيمانية، فازدان المكان وأشرقت الأركان بمقدم كلٍّ من المشرف العام على مجلة "حراء" الأستاذ "نوزاد صواش"، ورئيس مجلس إدارة مستشفى "سما" الأستاذ "مصطفى أوزجان"، فكان الرجاء والدعاء أن تكون هذه الإطلالة الأولى في الجزائر مورفة مورقة.

جاءت هذه الزيارة بالموازاة مع الصالون الدولي للكتاب بالجزائر من ٢١ سبتمبر إلى ١ أكتوبر ٢٠١١ تحت شعار: "الكتاب يحرِّر" الذي شهد المشاركة الثانية لمجلة "حراء" و"مجموعة قايناق" و"دار النيل".

وقد تميز جناح مجلة "حراء" في الصالون بحراك دائم للقراء والزوار من مختلف الأطياف والفئات، ممن يهتم بفكر الأستاذ "محمد فتح الله كولن" الذي يعسر على قرائه بالجزائر أن يجدوا إلى إصداراته -الفريدة النادرة- سبيلاً خلال أيام السنة.

حضور مجلة "حراء" في الصالون الدولي يعد إنجازًا حضاريًّا رشيدًا ومطلبًا مستقبليًّا أكيدًا، لما تحمله في قلبها وعقلها من أنفاس "حراء" (الغار) الأصيلة، ولما تشدو به من روح الوسطية والمودة. فهي ليست مجرد أوراق ولون، وحبر ورسم، إنها حاملة همّ وصاحبة رسالة جوهرها "بناء الإنسان" و"إعادة الإنسانية للإنسان" و"خدمة الإيمان والقرآن"... إنها بحق "حراء" الزمان و"حراء" المكان و"حراء" الرسالة.

في رحاب معهد المناهج

حظي معهد المناهج بتصدُّر جدول أعمال وزيارات وفد مجلة "حراء" إلى الجزائر، حيث حلّ الأستاذان "مصطفى أوزجان" و"نوزاد صواش" بين أحبتهم وإخوانهم صبيحة يوم السبت ٢٤ سبتمبر ٢٠١١، إذ كان يومًا مشهودًا بحضور ثلة من العلماء والدكاترة والضيوف؛ من الممثل الشخصي لرئيس المجلس الإسلامي الأعلى بالجزائر، وممثلٍ عن المجلس الأعلى للغة العربية، وسعادة قنصل سفارة ماليزيا بالجزائر، وفضيلة الأستاذ محمد الهادي الحسني عضو

لقاء في معهد المناهج



نوزاد صواش يلقي كلمة في الصالون الدولي للكتاب



لقاء في الأرشيف الوطني



لقاء في جامعة الجزائر

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ونائب مدير قناة القرآن الكريم بالجزائر.

كما حضرت ثلة من الدكاترة منهم سليمان عشراتي من جامعة وهران، وإبراهيم بحاز من جامعة قسنطينة، ومحمد ناصر بوحجام وفؤاد عبيد من جامعة باتنة، ومبروك زيد الخير من جامعة الأغواط، وعبد العزيز حدار من جامعة البليدة، ومصطفى وينتن من جامعة غرداية... بالإضافة إلى إطارات سامية من مؤسسات الدولة في أسلاك القضاء والإدارة والبنوك...

وقد لفت هذا الحدث الإعلامي بالتعاون بين مجلة "حراء" و"معهد المناهج" اهتمام وسائل الإعلام المختلفة من التلفزيون الجزائري، وتلفزيون القرآن الكريم، والإذاعة الثقافية، وإذاعة القرآن الكريم، وعددًا من الصحف الوطنية على غرار "الجزائر نيوز"، و"الشروق اليومي"، و"الجزائر الجديدة"... إضافة إلى قناة "سمانيولو" التركية التي شرفت الحدث بمشاركتها الطيبة.

وقد بث "شبكة فيبكوس المعرفية" -الراعي الإعلامي لهذا الحدث- وقائع وأحداث اليوم الإعلامي مباشرة على موقعها في الإنترنت (www.veecos.net)، فشاهده القاصي والداني وعمّ خيره المشرق والمغرب.

افتتح الدكتور محمد باباعمي المدير العام لمعهد المناهج، اليوم الإعلامي بكلمات ترحيبية معبرة عن الوصال الفكري بين "حراء" (الغار) و"حراء" (المجلة)، متحدثًا عن النسيج الحضاري الذي يشد الجزائر بتركيا من خلال ذكريات عثمانية أصيلة وعميقة، راجيًا أن يكون هذا اليوم الإعلامي مجدد الأمل وموقد الفعل والعمل.

كانت كلمات السيد مصطفى أوزجان في أول زيارة له إلى الجزائر، تنمّ عن إيمان عميق وفكر دقيق غرفه وتشربه من معين أستاذه "محمد فتح الله كولن". فقد نبه فضيلته إلى أن الواجب الأساسَ للمسلم اليوم، هو العودة إلى مستوى الحضارة الذي فقده لقرون، ليقوم بأداء دوره الحضاري المنوط به وهو إعادة الإنسانية إلى الإنسان من خلال تزكية القلب وتربية النشء بالعلم والمعرفة، مؤكدًا على أنه لا يتسنى لنا ذلك إلا بإيقاف النزيف الداخلي في العالم الإسلامي من صراع وخلاف حول الجزئيات، ليعود الفكر الإسلامي شموليًا رشيدًا كما ابتدأ في عهد المصطفى عليه الصلاة والسلام.

تلت هذه الكلماتِ مداخلةُ الأستاذ نوزاد صواش المشرف العام على مجلة "حراء" ليؤكد -وبلسان عربي مبين- أن "حراء" تمثل رحلة البحث عن الحكماء والعلماء في العالم العربي، أولئك الذين يحترقون همًّا ويكدحون ويجدّون بحثًا عن مشاريع إيجابية، ليصنعوا غدًا مشرقًا ومستقبلاً مثمرًا مورقًا... مشيرًا إلى أن الأستاذ "فتح الله كولن" ليس رجلاً فردًا، بل هو مدرسة فكرية تؤم مدارس ومشاريع تربوية، وتجمعات اقتصادية، ومؤسسات إعلامية تشكل مجلة "حراء" همزة الوصل بينها وبين العالم العربي.

وقد نوه الأستاذ نوزاد صواش بتفاعل أقلام جزائرية وعربية عديدة مع مجلة "حراء" من خلال طروحات فكرية ومقالات معرفية، إلا أن مجلة "حراء" تأمل في تفاعل أكبر وأوسع مع الباحثين والنخب الفكرية في العالم العربي والإسلامي في المستقبل القريب.

وكانت كلمة الأستاذ "صواش" فرصة لتقديم آخر إصدار للأستاذ "محمد فتح الله كولن" تحت عنوان: "ونحن نبني حضارتنا"، والذي يعد عصارة فكر الأستاذ في قضايا الفكر ودقائق النفس ومشكلات الحضارة.

بعدها أحال الدكتور محمد باباعمي إلى عدد من الحضور والضيوف، فشهدت الجلسة مشاركة الأستاذ محمد الهادي الحسني بلمساته التاريخية عن اللحمة العثمانية الجزائرية التي صنعت أمجادًا خالدة، داعيًا أن يكون هذا اليوم الإعلامي فرصة لصناعة التاريخ مجددًا، والاستفادة من فكر الأستاذ "فتح الله كولن" الذي تمثل أفكاره ترياقًا للحيارى ونورًا في الدياجير. وقد أمتع الدكتور سليمان عشراتي المجمع بكلمات رحب خلالها بالأساتذة مذكرًا بأن هذا الوفد يعد من أولى طلائع الأستاذ "فتح الله كولن"، فالأستاذ نموذج للنظر والتأمل والفعل والعمل. وقد أجمع الأساتذة المشاركون على ضرورة فهم فكر هذه المدرسة الفكرية ودراسة سبل تفعيلها في العالم العربي وبخاصة الجزائر.

في الصالون الدولي للكتاب

كانت المحطة الثانية التي توقفت عندها مجلة "حراء" بحضور الصحافة وأهل العلم والثقافة الصالون الدولي للكتاب، حيث قدم الأستاذ نوزاد صواش والأستاذ مصطفى أوزجان المحاضرة الثانية حول مجلة "حراء"، وذلك ضمن فعاليات



د. محمد باباعمي / مصطفى أوزجان



د. محمد الهادي الحسني يوقع اتفاقية تعاون ثقافي مع وفد حراء



السيد عبد الحميد شيخي مدير الأرشيف الوطني (على اليمين)



المعرض الدولي السادس عشر للكتاب.

تطرق السيد نوزاد صواش في المحاضرة حول "حراء" إلى أهدافها ورسالتها، مشيرًا إلى رغبة المجلة في مخاطبة عقل الإنسان المسلم من أجل تجنيب الأجيال القادمة مما وصفها بـ"سنوات الضياع"، وذلك بـ"رسم الطريق للخروج من الحيرة ليس نظريًّا ولكن ميدانيًّا". أما الأستاذ "أوزجان" أشار في تدخله إلى رسالة علماء اليوم ودورهم في غرس سياسة تزاوج العقل مع الفكر وتطابق القول مع الفعل.

في ضيافة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

شدت القافلة الرحال وانطلق القطار فكانت الوجهة قبلة حجيج الطلبة جامعة الجزائر للعلوم الإنسانية بأعالي "بوزريعة". باسم جمعية العلماء المسلمين رحب الدكتور عمار طالبي بضيوف الجزائر قائلاً: "نتشرف اليوم بالتقاء النخبة التركية بنظيرتها الجزائرية في يوم علمي ثقافي مدت جسوره مجلة "حراء" هنا بالحرم الجامعي صرح العلم والمعرفة".

وقال الدكتور طالبي عن المجلة: "إنها سميت بـ"حراء" اقتداء بـ"حراء" الغار الذي نزل فيه الوحي أول مرة على قلب الرسول الأكرم ﷺ، ومغزاها هو الرجوع إلى الذات وإلى القيم الإسلامية"، منوها بحالة الوهن والضعف الذي تعيشه الأمة الإسلامية بسبب انحصار فكر المسلمين بالإنتاج النظري، وافتقارها إلى المنهجية التطبيقية، وتحويل الأفكار من قول إلى عمل، لأن العبرة بالمقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني على حد قوله.

وأشاد عمار طالبي في تدخله بمجهودات الأستاذ "فتح الله كولن" في سعيه لإعادة بث الروح والقيم الإسلامية في الشباب والأمة، ودعاها إلى نفض الغبار عنها وبناء نفسها وذاتها من الداخل، مشيرًا إلى كتاب "ونحن نبني حضارتنا" للأستاذ "فتح الله كولن" الذي يحمل القيم الإنسانية التجديدية التوعوية لبناء فرد سوي عملي قوي متحضر... وقال إن "كولن" نجح بتجسيد هذه الأفكار في تركيا وخارج تركيا كأفريقيا وبلدان أسيا الوسطى ومناطق أخرى، حيث أنشئت المؤسسات التربوية والإعلامية بدعم رجال مخلصين آمنوا بأن التغيير لا يأتي إلا بالعلم والمعرفة.

في الأرشيف الوطني الجزائري

الأرشيف الوطني، المحطة ما قبل الأخيرة لرحلة "حراء"









بالجزائر. عبد الحميد شيخي مدير الأرشيف الوطني الجزائري رحب بالمشرف العام لمجلة "حراء" الأستاذ نوزاد صواش والأستاذ مصطفى أوزجان مع بعض الوجوه التاريخية الجزائرية والباحثين والأكاديميين في لقاء علمي ثقافي حول أهمية الوعي بالتاريخ ودوره في بناء المستقبل.

ووصف "أوزجان" القرون الأخيرة بقرون الضياع، مؤكدًا أن الأمة الإسلامية سُلبت منها ذاكرتها والمتمثلة في مؤسسات الأرشيف، مشيرًا إلى أن تركيا عانت كثيرًا من هذا الجانب وقال: "إن الحفاظ على ذاكرة الأمة يتوقف على تلقينها للأجيال وفتح مؤسسات الأرشيف أمامهم".

وفي كلمته قال مدير الأرشيف عبد الحميد شيخي: "لقد عاشت الجزائر وتركيا نفس المعاناة، فالمستعمر الفرنسي لم يترك وسيلة إلا وانتهجها لطمس هوية هذه الأمة وإتلاف كل الأرشيف الجزائري أو إخفائه منوهًا بالتعاون الجزائري التركي بخصوص الأرشيف المتعلق بالحقبة العثمانية بتركيا".

في جامعة الجزائر للعلوم الإسلامية

اختتمت "حراء" جولتها بجامعة الجزائر للعلوم الإسلامية بعقد جلسة فكرية تناولت عدة اقتراحات حول التعاون العلمي المشترك من طرف جمع من الدكاترة والأساتذة في العلوم الإسلامية، أمثال الدكتور عمار مساعدي عميد الكلية للعلوم الإسلامية رئيس الجلسة، وكذا الدكتور عمار جيدل والدكتور محمد بلغيث، برفقة المشرفين على مجلة "حراء" الأستاذ نوزاد صواش والأستاذ مصطفى أوزجان.

كانت الجلسة عبارة عن ورشة عمل قدمت فيها عدة قراءات لكتاب الأستاذ فتح الله كولن "ونحن نبني حضارتنا" على غرار مداخلة الدكتور عمار جيدل أحد أقلام مجلة "حراء"، كما قدم أيضًا الدكتور محمد بلغيث قراءة حضارية للكتاب "ونحن نبني حضارتنا". من جانبه اقترح الدكتور نوزاد صواش عقد ملتقى دولي مشترك لإجراء دراسة مقارنة للرؤية الحضارية بين الأستاذ "فتح الله كولن" وعلماء الجزائر المرموقين، والحاملين للهمّ عنه أمثال البشير الإبراهيمي، مالك بن نبي، عبد الحميد بن باديس. ■

(*) كاتب وصحفي جزائري.

ممدوح يلدريم*



حبر الحاج

سر من أسرار مسجد السليمانية

من المعروف أن المادة الأساسية في صناعة الحبر هي السخام، اللهم الحبر الذي استحدثه المعماري سنان من السخام المنبعث من القناديل إلى فضاء مسجد السليمانية بإسطنبول. والملفت للنظر في هذا الحبر تسميته بـ"حبر الحاج"، حيث كان السخام الذي يجمع في السليمانية، يوضع في البراميل المعبأة بالصمغ العربي والماء الصافي، ثم يرسَل إلى الحج على متون جمال قافلة المحمل النبوي الشريف ليسير في رحلة تستغرق -ذهابًا وإيابًا- ستة أشهر تقريبًا إلى الأراضي المقدسة، إذ ينخضّ خلال الرحلة انخضاضًا متواصلاً فيختمر فيتحول إلى حبر إذا ما جرى على الورق تغلغل في مساماته وظل على سطحه أبد الدهر لا ينمحي ولا يزول حتى وإن مسه ماء أو أية مادة سائلة. هذا وقد استخدم العثمانيون هذا الحبر في خط القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية الشريفة أو الفرمانات السلطانية السياسية والدينية والإدارية من قبل خطاطين بارعين.

لقد استحدث المعماري "سنان" فتحات صغيرة أسفل قبة جامع السليمانية جعلها في اتجاهات مختلفة ليتمكن من الحصول على تيار صاعد يجذب وراءه السخام المتصاعد من القناديل -البالغ عددها ٢٧٥ قنديلاً- فيجمعه عبر هذه الفتحات في مكان معين للإفادة منه في صناعة الحبر. ولهذا الغرض قام المعماري "سنان" بحسابات هندسية دقيقة، فأنشأ غرفة فوق المدخل الرئيسي لجامع السليمانية، ثم وضع فيها العديد من المصافي حيث ضمِن عن طريقها امتصاص السخام المتصاعد من القناديل، وبعد ذلك أخذ هذه المصافي فغمسها في الماء فذاب السخام وتحول إلى حبر. وبهذه الطريقة وفّق المعماري "سنان" في اجتياز مشكلةِ تراكم السخام على نقوش الجامع العليا ونجح في حماية الجدران من السخام الناتج من قناديله. ■

(*) كاتب وباحث تركي.

إبراهيم يوجه داغ*

ديدان الأرض

ومهندسات التربة

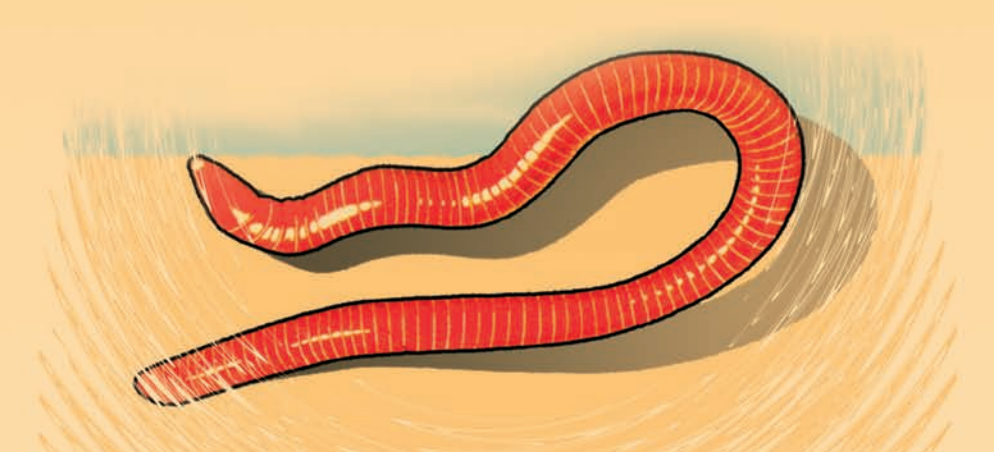
كائنات حية صغيرة تعيش تحت الأرض.. كائنات استطاعت أن تحوّل الأرض الجدباء إلى أرض خصبة.. إنها مهندسات بارعات في هندسة التربة والزراعة؛ تعمل على تهوية التربة وتحريكها لتصبح أرضًا معطاء كثيرة الخيرات.

لقد بيّنت الدراسات والأبحاث العلمية أن عدد الديدان في نصف دونم من الأرض يبلغ ثلاثة ملايين. تساعد هذه الديدان على تخصيب التربة -وبصمت متناه- دون أن يشعر بها أحد من البشر. أجل، إن المهمة العظمى التي تقوم بها هذه الكائنات الصغيرة والتي غالبًا ما ندعسها بأقدامنا ونمضي دون مبالاة، تسعى -وبدون فتور- إلى حفر أقنية ذات مقاطع دائرية تمتد نحو الأعماق يتراوح طول الواحد منها ٦٠-٧٠ سم، ثم تقوم بنقل ٢٥ طنًّا إلى السطح من التراب في الهكتار الواحد، وتستبدل التربةَ الخصبة في الأعماق بالتربة الجافة على السطح، حتى تتمكن من تهوية التربة وتقليبها وتسهيل حركة الماء فيها وامتصاصه، ثم تقدمها جاهزة مجهّزة ليرتزق منها الإنسان فيزرعها ويجني ثمارها.

والجدير بالذكر أن الدودة عندما تقوم بعملية تقليب التربة، تحرِّك من الأوزان ما يبلغ ٥٠-٦٠ ضعفًا من وزنها الذي لا يتجاوز بضع غرامات! وإن رفْعَ هذا الوزن يماثل رجلاً يبلغ وزنه ١٠٠ كغ يحمل في سلة خمسة أطنان!

كيف علِمتْ هذه المخلوقات أن تهوية التربة وتقليبها يأتي بالخصوبة والعطاء؟ وهل كانت تقوم بكل هذا الجهد للحصول على أجر؟ وماذا لو توقفت هذه الديدان التي لا نكاد نعبأ بوجودها أو نكترث بأمرها عن العمل؟ عندئذ سوف تتحول التربة في فترة قصيرة إلى جفاف وقحط وبرية جرداء تنتج شوكًا لا يصلح لشيء، ومن ثم سوف نجد أنفسنا أمام وضع مأساوي يوقعنا في بؤس عظيم فنهلك من الجوع والعطش! فالشكر كل الشكر للحكيم الرحيم الذي سخر للإنسان كل شيء. ■

(*) كاتب وباحث تركي.





مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين عن:
Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز
مصطفى طلعت قاطيرجي أوغلو

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير
هانئ رسلان
hraslan@hiramagazine.com

مدير التحرير
أجير إشيوك
eisiyok@hiramagazine.com

المخرج الفني
مراد عرباجي
marabaci@hiramagazine.com

المركز الرئيس
HIRA MAGAZINE
Kısıklı Mah. Meltem Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902164224140
hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع
٧ ش البرامكة - الحي السابع - م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: +20222631551
الهاتف الجوال : +20100780831
جمهورية مصر العربية

نوع النشر
مجلة دورية دولية

Yayın Türü
Yaygın Süreli

الطباعة

رقم الإيداع
١٨٧٩-١٣٠٦

للاشتراك من كل أنحاء العالم
pr@hiramagazine.com



التصور العام

- حراء مجلة علمية فكرية ثقافية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتَّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلًا أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton,
NJ, 07011, USA
Phone:+1 732 868 0210
Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
الوطنية للتوزيع
Phone: +966 1 4871414
المكتب الرئيسي: شارع التخصصي مع تقاطع شارع
الأمير سلطان بن عبد العزيز عمارة فيصل السيار
ص.ب: 68761 الرياض: 11537
الجوال: 00966504358213
saudia@hiramagazine.com
abdallahi7@hotmail.com
Phone-Fax: +966 1 2815226

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca /
Morocco
Phone: +212 22 24 92 00

SYRIA
GSM: +963 955 411 990

YEMEN
دار النشر للجامعات
الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي،
أمام الجامعة القديمة
Phone: +967 1 440144
GSM: +967 711518611

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 27
hira.cezayir@yahoo.com

SUDAN
مركز دار النيل، مكتب الخرطوم
مربع ٤٨ رقم ٣١ أركاويت - الخرطوم - السودان
Phone: 0024 991 367 91 86

JORDAN
GSM: +962 776 113862

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Phone: +971 266 789920

MAURITANIA
Phone: +2223014264

• المملكة العربية السعودية: ١٢ ريال سعودي • اليمن: ٣٥٠ ريال يمني • المغرب: ٢٠ درهم • الجزائر: ٢٥٠ دينار

إلى جبل قاف

(قصص واقعية)



- شباب اقتحموا المجهول وصارعوا الغربة والاغتراب...
- حملوا رسالة الروح ومضوا يجوبون الآفاق...
- بطولاتهم نادرة المثال، وسموهم من أعاجيب هذا الزمان...
- فجَّروا الطاقات وبنوا العقول وأناروا القلوب...
- قصصهم في هذا الكتاب واقعية غير أنها أغرب من كل خيال...



مركز التوزيع فرع القاهرة : ٧ ش البرامكة، الحي السابع، مدينة نصر – القاهرة / مصر

تليفون وفاكس : 20222631551+ الهاتف الجوال : 20165523088+

www.daralnile.com



تركيا: ٦ ليرات • أوروبا: ٣,٥ يورو • أمريكا: ٥ دولار



اليوم الموعود

إذا عهودنا مع الله لم ننقض،
وعلى أعقابنا عنه لم ننكص...
سطعت الأنوار، وذابت العقبات،
وازدهرت معاني "سورة النصر"...
فإذا برايات الإيمان ترفرف في كل مكان،
ويعمُّ الأمان وينتشر على الأرض السلام.

* * *

